

آل المهلب

في المشرق الإسلامي ودورهم السياسي والحزبي
حتى سقوط الدولة الأموية

دكتور

عبد النعم بن محمد السكيت

استاذ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية المساعد

كلية الاداب بسوهاج - جامعة اسيوط

مؤسسة باب

الجامع

للمطباعة والنشر

بمكة المكرمة ٢٠٠٧

١٩٩٠



Bibliotheca Alexandrina



0101159

23379

آل المهلب

في المشرق الإسلامي ودورهم السياسي والحزبي
حتى سقوط الدولة الأموية



General Library of the Alexandria University

بكتبة
المكتبة العامة
Bibliothèque

استاذ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية المساعد
كلية الآداب بسوهاج - جامعة اسيوط

مؤسسة شباب
الجامعة
الاسلامية والعلوم
الاجتماعية
الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية
رقم التصنيف: 953.02
رقم التسجيل: ٩٥٦٩٢

1. The first part of the paper discusses the importance of the study of the history of the United States. It is argued that a knowledge of the past is essential for a full understanding of the present and for the development of a sound policy for the future.

2. The second part of the paper discusses the importance of the study of the history of the United States. It is argued that a knowledge of the past is essential for a full understanding of the present and for the development of a sound policy for the future.

3. The third part of the paper discusses the importance of the study of the history of the United States. It is argued that a knowledge of the past is essential for a full understanding of the present and for the development of a sound policy for the future.



Figure 1. The effect of the number of trials on the number of correct responses. The number of correct responses was plotted against the number of trials for each condition. The number of correct responses increased with the number of trials for all conditions. The number of correct responses was highest for the condition with the highest number of trials (10 trials) and lowest for the condition with the lowest number of trials (2 trials).

مقدم

يتناول هذا البحث تاريخ آل المهلب في المشرق الاسلامى ونشاطهم السياسى والحربى حتى نهاية العصر الأموى . وقد حاولت من خلاله البقاء الضوء على هذه الأسرة العريقة التى كان لها دورا مؤثرا فى حركة الفتوحات الاسلامية فى صدر الاسلام ، كما تصدت لحركات المعارضة وكان لها مواقف مشرفة فى الصراع ضد الخوارج الأزارقة الذين روعوا العالم الاسلامى فى المشرق وأثاروا الذعر بين الخاصة والعامة .

وقد تعرضت هذه الأسرة الى تشهير متعمد من جانب عناصر من الشعوبيين وكتاب المثالب ، ونحن فى هذا البحث لم نقف أمام هذه الحالة لننفى ما ذهب اليه بعض هؤلاء من الطعن فى نسبهم العربى ، والاساءة اليهم ، فان نسبهم وانتماءهم الى قبائل الأزرق قضية حسمتها معظم المصادر التاريخية ، ولا مجال للشك فيها . فنجد الحجاج بن يوسف الثقفى فى احدى رسائله للمهلب يقول أنه قد اختاره لحرب الأزارقة وفضله على رجال من مضر « . . وهو رجل من أهل عمان . . من الأزرق . . » وما كان الحجاج أو غيره من مؤرخى المسلمين يجهلون نسب المهلب ، وما قيل غير ذلك فهو ضرب من التعدى على الحقائق التاريخية .

وفي الفصل الأول حاولت ابراز دور أبى صفرة والد المهلب خلال عصر النبوة والخلافة الراشدة ، فتاريخ أبى صفرة طغى عليه شهرة ابنه المهلب ، ولم يحظ باهتمام المؤرخين ، فهو من أوائل الذين اعتنقوا الاسلام بين قومه أزد عمان ، كما يأتى ذكره فى المصادر من بين القواد الذين ساهموا فى حركة الفتوحات الاسلامية فى المشرق فى عهد الخليفين عمر وعثمان وكان أبو صفرة يقود فرقة من قومه الأزدي وكان يصحبه من أبنائه : النجف والمغيرة وحبيب •

وجاء ذكر المهلب لأول مرة فى حياة أبيه فى حملة المسلمين على سجستان فى أواخر خلافة عثمان (٣٥هـ) ، وبوفاة أبى صفرة حوالى سنة ٥٣٧هـ تنتقل زعامة الأسرة الى ابنه المهلب ، لتزداد المصادر نسب الأسرة كلها اليه فيطلق عليهم أحيانا «المهالبة» وأحيانا «آل المهلب» •

وخلال الفترة السفينية من تاريخ الدولة الأموية ، حقق المهلب شهرة واسعة كأحد الأبطال فى مجال الحرب والجهاد فى الجبهة الشرقية مما رفع من شأن المهالبة وجعل ولاية خراسان يحرصون على أن يصحبهم المهلب ورجاله الى خراسان ليكونوا سندا لهم فى معاركهم هناك • وفى أواخر هذه الفترة تظهر براعة المهلب السياسية وحسن تقديره للأمور عندما اشتعلت الصراعات بين القبائل فى خراسان فى أعقاب وفاة يزيد بن معاوية ، وكان والى خراسان (سلم بن زياد) قد انسحب منها تاركا ادارتها للمهلب ، وقد أغضب هذا التصرف عناصر من المضرية ، وتنازعت القبائل للسيطرة على خراسان وتمزقت أقاليمها فيما بينهم ، وقد أثر المهلب فى هذا الجو المضطرب أن لا يكون طرفا فى هذا الصراع ، فانسحب برجاله وآل بيته وأقام بالبصرة يرقب الأحداث •

وتناولت في الفصل الثاني علاقة المهالبة بثورة عبد الله بن الزبير ،

وهي في رأينا علاقة طبيعية نتيجة لوقوع العراق وأقاليم المشرق وأهمها خراسان تحت نفوذ ابن الزبير ، ولما كان المهلب أحد القادة المشهود لهم بالكفاءة في هذه المنطقة فقد سعى ابن الزبير حثيثا ليضم المهلب الى صفوفه واجتمع به طويلا وأغراه بولاية خراسان في الوقت الذي كان فيه الأمويون مشغولون بقضية الوراثة ومن يخلف معاوية الثاني ، فاستجاب المهلب ، وفي طريقه لخراسان مر بالبصرة التي بها معظم قبيلته ورجاله ، وكانت البصرة تتعرض لخطر داهم من جانب الأزارقة ، فضحى المهلب بخراسان وتصدى لحرب الأزارقة منذ هذا التاريخ (٦٥هـ) استجابة لرجاء أهل البصرة وبتكليف من عبد الله بن الزبير وأوضحت كيف استمر المهالبة في صراعهم ضد الأزارقة حتى قتل مصعب ابن الزبير سنة ٧١هـ ، ويبدو أن المهلب كان يدرك أن مكانه هو الجهاد والحرب سواء كان منتميا الى ابن الزبير أو الى الأمويين ، فأعلن المهلب البيعة لعبد الملك بن مروان الذي شكره وأثنى عليه وأقره على ما تحت يده من ولايات وأسند اليه مهمة مواصلة الحرب ضد الأزارقة.

أما الفصل الثالث ، فقد تناولت فيه علاقة المهالبة بالدولة الأموية

منذ سنة ٧١هـ وحتى القضاء على الأزارقة سنة ٧٧هـ ونلاحظ في هذه المرحلة أن آل المهلب كانوا موضع حسد من جانب عناصر استبد بها التعصب القبلي وساءها أن يسيطر الأزرق على مجريات الحرب ضد الأزارقة ، ويحوزوا شرف النصر تلو النصر في الوقت الذي قُتل فيه غيرهم من المضرية في أن يحلوا محلهم ، وكانت الخلافة الأموية تدرك

أنه لا يستطيع التصدي للأزارقة إلا المهالبة ، ورغم ذلك فقد تعرض المهلب للعديد من المضايقات وخاصة من جانب وإلى العراق الحجاج بن يوسف الثقفي الذي كان يتهمة باطالة الحرب طمعا في الخراج الذي يجبيه من الأراضي الخاضعة له •

ورغم الاستفزاز ظل المهلب يدارى الحجاج ، حتى تمكن في النهاية من تحقيق النصر على الأزارقة ، وكانت ولاية خراسان هي الجائزة التي حصل عليها المهلب لجهوده في القضاء على خطر الأزارقة •

أما الفصل الرابع : فقد تناولت فيه فترة ولاية المهلب على خراسان حتى وفاته سنة ٨٢هـ وأبرزت عدة نقاط مهمة منها أن الحجاج كان يضمن الحقد على المهلب وأغرمه مبلغا كبيرا من المال ، وعلى الرغم من ذلك فقد ظل المهلب يجاهد في سبيل نشر الاسلام « فخيّل له بسمرقند وأخرى ببخارى وأخرى بطخارستان » كما نجح المهلب في حفظ التوازن في علاقته بالحجاج وبالخليفة الأموي في دمشق فلم يكن في طبعه الغدر ونكث العهود ويظهر هذا في موقفه من ثورة ابن الأشعث سنة (٨١هـ) ، كما يظهر بوضوح في وصيته لأبنائه قبيل وفاته •

أما الفصل الخامس : فقد تناولت فيه تاريخ المهالبة منذ تولى قيادة الأسرة يزيد بن المهلب وحتى وفاة عمر بن عبد العزيز (١٠١هـ) وأوضحت أن المهالبة في هذه الفترة قد نالوا حظا وافرا من القوة والنفوذ وخاصة في خلافة سليمان بن عبد الملك حتى أن بعض الرواة ذكروا أن يزيد بن المهلب كان يجلس مكان الخليفة الأموي في غيابه ، ولكن هذا الوضع أثار الأحقاد والغيرة ، وكانت أخطر هذه الأحقاد ما جاء من جانب أمراء

البيت الأموي فقد شعر بعضهم بالضائلة أمام نفوذ يزيد وسطوته ،
مما عجل بنكبة المهالبة .

أما الفصل السادس : فقد أوضحت فيه ثورة آل المهلب ضد الدولة
الأموية وحللت الأسباب التي أثارت البيت الأموي ضد يزيد ، وظروف
الحرب الضارية التي خاضها يزيد ضد الأمويين ، ورغم كثرة أنصاره
الا أن يزيد بن المهلب كان يرفع السيف هذه المرة في وجه الدولة صاحبة
الحق الشرعي في الحكم مما أدى الى هزيمته في موقعة العقر (١٠٢هـ)
وقد أبرزت عوامل هزيمة يزيد في هذه الموقعة . ومطاردة الأمويين لآل
المهلب في كل مكان للقضاء على نفوذهم .

وقد وضحت في الخاتمة أنه رغم مطاردة الأهويين لآل المهلب فان
من بقى منهم ظل على عدائه للدولة الأموية طلبا للتأثر ، فقد ثار
سليمان بن حبيب بن المهلب سنة ١٢٩هـ ضد الأمويين في الأهواز كما
خرج سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب على الأمويين في البصرة
معقل المهالبة سنة ١٣٣هـ تأييدا للدعوة العباسية .

هذا وفي النهاية أرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت اليه من هذا
البحث . ونسأل الله التوفيق في الفكر والقول والعمل ، انه نعم الموفق .

د . عبد المنعم سلطان

الفصل الأول

أسرة المهالبة منذ اعتنق أبو صفرة الاسلام

وحتى وفاة يزيد بن معاوية (٦٤هـ)

تتنسب أسرة المهالبة إلى المهلب بن أبي صفرة ، واسم أبي صفرة « ظالم بن سراق »^(١) الذي يرجع نسبه إلى قبائل الأزد اليمنية^(٢) التي هاجرت إلى عمان وكانت إحدى الهجرات اليمنية التي تفرقت في شبه الجزيرة العربية في أعقاب انهيارات سد مأرب ولأسباب أخرى ذكرها الرواة والنسابون ، وكانت الأزد عند تفرقها أضيفت كل طائفة إلى شيء يميزها عن غيرها ، فقليل أزد دبا وأزد شنوءة وأزد عمان . . و مرجع الكل إلى الأزد المذكورة^(٣) . ويروى النسابون العمانيون أن أبا صفرة من أهل مدينة (أدم) من داخلية عمان ، وأن آل بوسعيد في عمان ينتسبون إلى أبي سعيد المهلب بن أبي صفرة^(٤) .

(١) راجع : ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٣٩٩ (القاهرة ١٩٦٩) ، أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٢ ، ص ٧٥ (القاهرة ١٩٧٢) ويروى ابن حزم أن اسمه : سالم بن سراق . انظر : جمهرة أنساب العرب ، ص ٣٦٧ (القاهرة ١٩٨٢) .

(٢) الأغاني ، ٢ ، ص ٧٦ ، ابن حجر ، الإصابة ، ج ٤ ، ص ١٠٨ (بيروت ١٣٢٨ هـ) .

(٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ٣٥٨ .

(٤) راجع : سيف بن حمود البطاش ، تاريخ المهلب القائد ، ص ١٣ ، ص ٢٢ .

ويروى ابن حجر في الإصابة ما يوحى بأن أبا صفرة كان صحابياً والتقى بالرسول ﷺ وبايعه على الإسلام ، وأن رسول الله هو الذي أطلق عليه هذه التسمية « أبو صفرة » فيقول : « أن أبا صفرة قدم على رسول الله ﷺ على أن يبايعه وعليه خلة صفراء .. فلما رآه .. قال له من أنت . قال : أنا قاطع بن سارق بن ظالم .. فقال له النبي : أنت أبو صفرة . دغ عنك سارقاً وظالماً .. فأعلن أبو صفرة إسلامه ، وقال ان لى ثمانية عشر ذكراً ورزقت بنتاً سميتها صفرة ، فقال النبي وأنت أبو صفرة (٥) .

ويعترف ابن حجر بأن هذه الرواية فيها اختلاف وأن بعض الروايات تنكر صحابة أبي صفرة ولقائه بالنبي . وفي رواية صاحب « الاستيعاب » أن أبا صفرة كان مسلماً على عهد الرسول ﷺ ولم يفد عليه ، ووفد على عمر بن الخطاب (٦) .

والروايتان السابقتان تحتاجان الى وقفة لترتيب ما جاء فيهما طبقاً لما ورد في المصادر العمانية التي تحت أيدينا . فاحتمالات لقاء أبي صفرة بالرسول ﷺ في المدينة ليعلن إسلامه بين يديه ممكنة . إذ تروى المصادر العمانية أن الإسلام قد عرف طريقه الى عمان في وقت مبكر من ظهور الدعوة الإسلامية في الحجاز ، وأن أول من اعتنق الإسلام في عمان هو مازن بن غصوبة من أهل سمائل الذي سافر الى

(٥) ابن حجر ، ج ٤ ، ص ١٠٨ . وهناك رواية أخرى في الأغاني بأن تسميته بأبي صفرة لأنه كان يصفر لحيته . انظر : الأغاني : ج ٢ ، ص ٧٦ .
(٦) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ص ١٠٩ (بيروت ١٣٢٨ هـ) .

المدينة والتقى بالنبي وأعلن إسلامه أمامه ، وتبعه البعض في هذا الاتجاه^(٧) ويروى ابن سعد في الطبقات أن وفودا من أهل عمان رحلت الى المدينة والتقت بالنبي ﷺ لإعلان إسلامها وكان ذلك قبل الفتح وطلبوا من الرسول أن يرسل معهم من يعلمهم شئون دينهم^(٨) وكان هذا قبل أن يبعث الرسول برسالته الى حاكمي عمان : عبد وجيفر ابني الجلندي يدعوهم فيها الى الاسلام^(٩) . فاذا أضفنا الى هذا أن أبا صفرة كان مقدما في قومه أهل عمان وكان من أصحاب السيادة والزعامة . فلما أسلم زاد شرفه وقدمه قومه^(١٠) فاننا نرجح حدوث رحلته الى المدينة ولقائه بالرسول ﷺ كما جاء في رواية ابن حجر .

أما عن قول صاحب الاستيعاب بأن أبا صفرة لم يلتق بالرسول ﷺ وانما التقى بعمر بن الخطاب ، فهذه الرواية ينقصها الدقة . فانه من المعروف أن أبا صفرة قد التقى بأبي بكر الصديق بعد توليه الخلافة الاسلامية ، والروايات التي بين أيدينا تؤكد أنه في أعقاب وفاة الرسول ﷺ عاد عمرو بن العاص من عمان — وكان واليا عليها منذ سنة ٨ هـ — الى المدينة ، مصحوبا بوفد عماني يقدر بحوالي سبعين فارسا على رأسهم أحد حاكمي عمان وهو « عبد بن الجلندي » وكان من بين أعضاء هذا الوفد أبو صفرة^(١١) . وكان هذا الوفد في حقيقة أمره خفارة لعمرو بن العاص ، خوفا عليه من مخاطر الرحلة من عمان الى المدينة في ظل الاضطرابات التي شاعت بين القبائل في أعقاب وفاة

(٧) نور الدين السالمي ، تحفة الأعيان ، ج ١ ، ص ٥٣ وما بعدها .

(٨) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٢ ، ص ٨٠ — ٨١ (طبعة دار الشعب) .

(٩) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٩٣ .

(١٠) العوتبي ، الأنساب ، ج ٢ ، ص ١٣١ .

(١١) راجع : ابن خلكان ، وفيات ، ج ٤ ، ص ٣٢٣ ، ٣٢٩ .

الرسول ﷺ فكان عمرو بن العاص في رحلته « يلقي الناس مرتدين ، وقدم على الناس بالمدينة فطافوا به يسألونه ، فأخبرهم أن العساكر معسكرة من دبا الى المدينة » (١٢) . لذلك ما كاد الوفد العماني يصل الى المدينة حتى التقى بالخليفة أبي بكر ، وتحدث أبو صفرة عن العمانيين فقدم اليه عمرو بن العاص سالما معافى وقال : « هذه أمانة كانت في أيدينا وفي ذمتنا وديعة لرسول الله ﷺ فقد برئنا منها اليك ، فقال أبو بكر جزاكم الله خيرا » (١٣) .

ويؤكد صاحب الأغاني هذه الرواية العمانية فيقول : « وفد ابن الجندى في الأزدي ، أزد عمان . . فكان فيمن وفد منهم أبو صفرة . . فدخل الى عمر مع ابن الجندى » (١٤) . ويبدو أن الوفد العماني كان قد التقى في أول الأمر مع عمر بن الخطاب ثم حدث اللقاء بعد ذلك مع الخليفة أبي بكر ، لأن الروايات المتوفرة لا تذكر الا زيارة واحدة لابن الجندى تلك التي ذكرناها والتي شارك فيها أبو صفرة .

ثم يأتي ذكر أبي صفرة كأحد القواد الذين شاركوا في الحملات الاسلامية على بلاد فارس في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وكان عمر قد أصدر تعليماته الى والي عمان في ذلك الوقت « عثمان بن أبي العاص الثقفي » بمراقبة تحركات الجيش الفارسي في الخليج ، وأن يتصدى له عند الضرورة ، ويبدو أن أبا صفرة كان على خبرة

(١٢) السالمى ، تحفة ، ص ٤٥ .

(١٣) نفسه ، ص ٤٣ .

(١٤) الاغانى ، ج ٢ ، ص ٧٦ .

ودراية كبيرة بشئون البحر والملاحة البحرية وموضع ثقة أهل عمان في هذا المجال ، فعندما طلب عمر بن الخطاب من والى عمان أن يقطع الخليج بالسفن الى فارس طلب عثمان بن أبى العاص من أهل عمان أن يدلوه على من يشاوره في أمر هذه الحملة البحرية ، فاقترح عليه العمانيون أن يشاور أبا صفرة (١٥) .

وندب والى عمان المقاتلة فاجتمع له حوالى ثلاثة آلاف مقاتل معظمهم من أزد عمان ، وكان من بين رجاله أبو صفرة وكان يقود قومه بنى عمران (١٦) وصحب أبو صفرة من أبنائه : النجف والمغيرة وحبيب (١٧) ، وتمكن عثمان بن أبى العاص بهذه الحملة من هزيمة القوات الفارسية في الخليج واستولى على جزيرة ابن كاوان ، وطارد الفرس حتى الضفة الشرقية للخليج وأوقع بهم الهزيمة في كرمان ، وأظهر أبو صفرة وأبنائوه ورجاله شجاعة وبسالة خلال هذه المعارك (١٨) .

واستمر أبو صفرة يشارك في المعارك التى خاضها المسلمون في الجبهة الفارسية في عهد عثمان بن عفان ، فيروى ابن خلدون أن عثمان بن أبى العاص أرسل أخاه الحكم من البحرين الى فارس في الفين فسار الى توج — مدينة بفارس — وعلى مجنبيه جارود العبدى وأبو صفرة والد المهلب ، وكان كسرى أرسل أحد قواده ويدعى «شهرک» في الجنود

(١٥) الانساب ، ص ١٢٣ ، تحفة ، ص ٤٦ .

(١٦) بنو عمران من بطون الأزد نسبة الى عمرو بن عدى بن حارثة بن

عمرو بن عامر . (انظر : تاريخ اليعقوبى ، ج ١ ، ص ٢٠٣ — ٢٠٤) .

(١٧) الانساب : ص ١٢٢ .

(١٨) تحفة ، ص ٤٦ .

للقائهم ، فالتقوا بتوج وانتهى الأمر بهزيمة الفرس وقتل قائدهم «شهرک» وطاردتهم المسلمون الى سابور وحاصروها حتى خضع أهلها للصلح^(١٩) .

وبعد هذا الانتصار نزل أبو صفرة في توج واتخذها مقرا له مع أهله وجنده ولكنه انتقل بعد ذلك للإقامة في البصرة في خلافة عثمان بن عفان عندما رحب به واليها في ذلك الوقت عبد الله بن عامر^(٢٠) وضم فرقة الأزد بقيادة أبي صفرة اليه في البصرة^(٢١) .

ويأتى ذكر المهلب بن أبي صفرة في ذلك الوقت لأول مرة في الحملة التي قادها عبد الرحمن بن سمرة القرشي (ابن عم عبد الله بن عامر والي البصرة) الذي ولاه الخليفة عثمان على سجستان ، وقد شارك في الحملة على سجستان أبو صفرة وابنه المهلب ويقال أنه كان يومئذ ابن عشرين سنة وبعد معارك عنيفة استولى المسلمون على سجستان ، ثم توجه المسلمون الى كابل وكان المهلب أحد أبطال المعارك حول كابل حيث تمكن من إصابة ملك كابل مما اضطره الى الاستسلام وعقد الصلح مع المسلمين ، واعلان اسلامه^(٢٢) . وتتفق هذه الحملة مع ما ذكره الطبرى في أحداث سنة ٣٥ هـ حيث أشار الى حملة شارك

(١٩) تاريخ ابن خلدون ، م ٢ ، ص ٩٨٩ (بيروت ١٩٨٦) ، قارن : تاريخ الطبرى ، ج ٣ ، ص ١٧٦ — ١٧٧ .

(٢٠) ابن خال الخليفة عثمان ، تولى البصرة وسنه ٢٥ عاما بعد عزل أبى موسى الاشعري (ابن أعثم ، الفتوحات ، م ١ ، ص ٣٣٦) .

(٢١) الانساب ، ص ١٢٥ ، تحفة ، ص ٤٨ .

(٢٢) انظر : قدامه بن جعفر ، الخراج ، ص ٣٩٤ ، ابن أعثم . الفتوحات م ١ ، ص ٣٣٩ — ٣٤٠ .

ففيها المهلب بن أبي صفرة ، وهو أول ذكر للمهلب في تاريخ الطبري (٢٣) ويؤكد تسلسل الأحداث ما رواه العوتبي من أن أبا صفرة غزا مع عبد الرحمن بن سمرة القرشي خراسان بالقوات التي كان قد خرج بها من عمان ، ثم عاد من غزوته هذه في خلافة علي بن أبي طالب (٢٤) .

والتقى أبو صفرة بالخليفة علي بن أبي طالب في أعقاب موقعة الجمل في البصرة ، ودار بينهما حوار يفهم منه أن أبا صفرة كان زعيما لقبائل الأزدي في العراق في ذلك الوقت ، لأن عليا عندما أظهر شكواه مما قاساه من قومه ، قال له أبو صفرة : « والله يا أمير المؤمنين لو كنت حاضرا ما اختلف عليك منهم سيفان » فطلب علي من أبي صفرة أن يأتيه بأحد أبنائه ليعقد له لواء أمان للذين هربوا بعد موقعة الجمل ، ليرجعوا الى بلادهم ورفض النجف بن أبي صفرة أن تسند له هذه المهمة لأنه كان حائقا على نتائج موقعة الجمل ، فوافق المهلب على القيام بهذا الدور ، فعقدت راية الأمان للمهلب ، ورجع معظم الفارين الى البصرة « وتيمن الناس بلواء المهلب » (٢٥) .

ونحن لا نعلم تاريخ وفاة أبو صفرة ، الا أنه توفي بالبصرة في ولاية عبد الله بن العباس لعلي بن أبي طالب ، ويقال انه توفي في مسيره الى صفين (٢٦) مما يرجح أن تكون وفاته حوالي سنة ٣٧ هـ .

ليست هناك اشارة واضحة في المصادر التي بين أيدينا عن الشخص

(٢٣) تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٠٣ .

(٢٤) الأنساب ، ص ١٢٥ .

(٢٥) راجع التفاصيل : الأنساب ، ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(٢٦) أنساب ، ١٢٧ ، تاريخ المهلب ، ٢٥ .

الذى تولى رئاسة أسرة أبى صفرة فى أعقاب وفاته ، ولكن الدلائل توحى أن أهم الشخصيات فى هذه الأسرة آنذاك كانت ابنه المهلب ، فرغم صغر سنه بالمقارنة باخوته^(٢٧) إلا أنه قد برز فى مجال الحرب والفروسية ، وعلت منزلته — كما أشرنا فى الصفحات السابقة — فكان هو المرشح الأول لتولى زعامة الأسرة بعد وفاة أبيه ، ويرجح هذا ما ترويه المصادر عن مساهمته فى غزو بلاد السند سنة ٤٤هـ ، وخاض خلال ذلك معركة عنيفة ضد جماعة من فرسان الأتراك ، وتمكن ببراعة من أن يقضى عليهم جميعا^(٢٨) وكان المهلب خلال هذه الفترة يقود جيشا من أهله الأزدي^(٢٩) مما يشير الى أنه قد خلف أباه أيضا فى قيادة ما كان تحت يده من جند .

وفى رواية لليعقوبى أن معاوية بن أبى سفيان كتب الى زياد بن أبيه واليه على الكوفة : أن قبلك رجلا من أصحاب رسول الله فوله خراسان وهو الحكم بن عمرو الغفارى ، فولاه زياد خراسان فغزا (هراة) وفتح (الجوزجان) وكان يشاركه فى المعارك المهلب بن أبى صفرة^(٣٠) الذى أظهر بأسا ومهارة فى قتال العدو . واستمر المهلب يجاهد فى هذه الجبهة فى المناطق الوعرة وضد أشد العناصر السكانية قوة وضراوة فى القتال . فعندما غزا الحكم بن عمرو الغفارى جبال الترك سنة ٤٧هـ كان المهلب أحد قواد هذه الحملة ، وفى مرحلة من

(٢٧) يروى ابن خلكان أن المهلب من أصاغر ولد أبى صفرة ، ويحدد مولده قبل وفاة النبى بسنتين (وفيات ، ج ٥ ، ص ٣٥١) .

(٢٨) التويرى ، نهاية الأرب ، ٢٠ ، ص ٢٦٦ .

(٢٩) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٥٣١ .

(٣٠) تاريخ اليعقوبى ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ .

المعارك وقع جيش الحكم في كمين للأتراك فأخذ عليهم الترك الشعب والطرق ، وعندما تخرج موقف الحكم أسند القيادة الى المهلب بن أبي صفرة ، الذي تمكن عن طريق الحيلة والتدبير من أسر أحد زعماء الترك ، وسأومه على حياته في مقابل أن يدلهم على مخرج من الكمين ، وتمكن عن طريقه من النجاة بجيشه وما يحمله من غنائم من الحصار الذي فرضه عليهم الترك (٣١) .

ويبدو أن ما أظهره المهلب بن أبي صفرة من مهارة قتالية وحسن تصرف وحنكة في المواقف العصيبة ، جعله أحد القادة المشهورين في حروب الجبهة الشرقية ، فكان الولاة على خراسان يتمسكون بأن يكون في صحبتهم المهلب بن أبي صفرة ، فعندما تحرك سعيد بن عثمان بن عفان سنة ٥٦هـ لولاية اقليم خراسان كان من بين قواده المهلب بن أبي صفرة (٣٢) وقد شارك المهلب في العديد من المعارك العنيفة في هذه الفترة وخاصة غزو سمرقند ، ويقال ان سعيد بن عثمان والمهلب قد فقت عيناها خلال المعارك (٣٣) .

وفي خلافة يزيد بن معاوية ، ولى على خراسان وسجستان سلم بن زياد سنة ٦١هـ ، الذي خرج من الشام طالبا البصرة ليحمل معه أهله وولده ، وليعلم أهل البصرة بولايته بلاد خراسان ، ليخرج معه من أحب الجهاد فخرج معه المهلب بن أبي صفرة وعدد من سادات البصرة

(٣١) راجع : نهاية الأرب ، ج ٢٠ ، ص ٢٦٧ . قارن : تاريخ الطبرى ،

ج ٥ ، ص ٢٥١ الذى يروى هذه الحادثة في أحداث سنة ٥٥هـ .

(٣٢) تاريخ الطبرى ، ج ٥ ، ص ٣٠٥ .

(٣٣) راجع : بلاذرى ، فتوح ، ص ٥٠٨ .

وفرسانها^(٣٤) وزحفت جيوش سلم بن زياد على بخارى ، وكانت عليها ملكة تدعى «خاتون» ، فلما شعرت بالخطر ، أعلنت رغبتها في الزواج من ملك الصغد على أن يأتي لتملك بخارى ، والوقوف في وجه المسلمين ، فأقبل ملك الصغد في مائة وعشرين ألف مقاتل ، وأمام هذا العدد الضخم رأى سلم أن يجعل على طليعة جيشه المهلب بن أبي صفرة ، وبعد معارك عنيفة تمكن المهلب من إلحاق الهزيمة بجيش الترك وقتل ملك الصغد في المعركة^(٣٥) .

استمر سلم بن زياد على خراسان ، حتى وفاة يزيد بن معاوية في صفر سنة ٦٤هـ^(٣٦) ، وأراد سلم أن يكتسب خبر موته خوفاً للفتنة بين القبائل ولكن الخبر ذاع في الناس بعد فترة وكان خليفته معاوية الثاني قد مات هو الآخر ، فدعا سلم الناس إلى البيعة على الرضا حتى تستقيم أمور الناس على خليفة ، فبايعوه ، ثم نكثوا بعد شهرين^(٣٧) . فلما تأزمت الأمور أمام سلم بن زياد خرج من خراسان واستخلف عليها المهلب بن أبي صفرة ، ولكن المهلب كان مدركاً لحقيقة الصراع القبلي المحتدم في خراسان وفي الشام ، فلم يشأ أن يقحم نفسه في هذا الصراع ، لاسيما أن معظم القبائل وخاصة القيسية لم تكن راضية عن اسناد ولاية خراسان إلى المهلب ، فيروى النويري^(٣٨)

(٣٤) تاريخ اليعقوبى ، ج ٢ ، ص ٢٥٢ ، ابن أعمش ، م ٣ ، ص ١٥٧ —

ص ١٥٩ .

(٣٥) تاريخ اليعقوبى ، ص ٢٥٢ .

(٣٦) ابن أعمش ، م ٣ ، ص ١٥٩ .

(٣٧) تاريخ الطبرى ، ج ٥ ، ص ٥٤٥ .

(٣٨) نهاية الأرب ، ج ٢٠ ، ص ٥١٣ .

أن سلم بن زياد لقي في طريق عودته من خراسان في مدينة سرخس سليمان بن مرثد (أحد بنى قيس بن ثعلبة) فقال له : اضاقت عليك نزار حتى حلفت على خراسان رجلا من اليمن ، يعني المهلب ، فما كان من سلم الا أن ولاء بعض أقاليم خراسان وهى مرو الروز والمارياب والطارقان والجوزجان ، وولى أوس بن ثعلبة هراة . وفي نيسابور لقي مسلم بن زياد عبد الله بن خازم السلمى وكان أحد الأشراف الذين محبوبه عند ولايته خراسان^(٣٩) فسأله من وليت خراسان؟ فلما أخبره قال : أما وجدت في مضر رجلا تستعمله حتى فرقت خراسان بين بكر بن وائل ومزون عمان^(٤٠) وطلب منه أن يكتب له عهدا على خراسان ، فكتب له^(٤١) .

وتوجه عبد الله بن خازم الى مرو عاصمة خراسان ، وبلغ خبره المهلب الذى رأى أن خراسان مقبلة على فترة حرجة من الصراع القبلى من أجل السيطرة وفرض السيادة عليها ، وحسم المهلب أمره على ألا يكون طرفا في هذا الصراع ، ولاسيما وأن النزاع كان على أشده في الشام حول منصب الخلافة ، ويبدو أن ذكاء المهلب السياسى قد هداه الى التخلي عن منصبه المؤقت كوال لخراسان فاستخلف عليها هرفجة بن الورد (من بنى جشم بن سعد بن زيد بن مناة بن تميم) وانسحب من خراسان في سلام ، ويؤكد حسن تصرف المهلب في هذا الموقف وانسحابه من خراسان ما رواه الطبرى «لما مات يزيد بن معاوية،

(٣٩) تاريخ اليعقوبى ، ج ٢ ، ص ٢٥٢ .

(٤٠) تاريخ الطبرى ، ج ٥ ، ص ٥٤٦ .

(٤١) النويرى ، نفسه .

ومعاوية بن يزيد ، وثب أهل خراسان بعمالهم ، وغلب كل قوم على ناحية ،
ووقعت الفتنة ، وغلب ابن خازم على خراسان ووقعت الحرب (٤٢) .

(٤٢) تاريخ الطبري ، نفسه .

الفصل الثاني

آل المهلب وثورة عبد الله بن الزبير

عاد المهلب من خراسان سنة ٦٤هـ واستقر في مقره بالبصرة مع رجاله ، ويبدو من الروايات التي بين أيدينا أن عبد الله بن الزبير كان يعرف قدر المهلب وأهمية أن ينضم رجل مثله الى صفوفه ، ونجح في أن يجذبه للقاءه في مكة حيث تشاور الرجلان ، فيروي ابن خلكان أنه أثناء خلوة عبد الله بن الزبير بالمهلب يشاوره « فدخل عليه عبد الله بن صفوان ابن أمية بن خلف .. فقال : من هذا الذي شغلك يا أمير المؤمنين يومك هذا؟ قال : أو ما تعرفه؟ قال : لا ، قال : هذا سيد أهل العراق ، قال : فهو المهلب بن أبي صفرة »^(١) ويبدو أن هذه المشاورات قد أسفرت عن إقناع عبد الله بن الزبير للمهلب بأن يتولى خراسان نائباً عنه .

وقد أثار هذا الأمر جدلاً حول أخلاقيات آل المهلب نتيجة تحولهم من ولاء الى ولاء ، فبعد أن كانوا يعملون تحت راية الدولة الأموية تحولوا الى أعدائها من آل الزبير .

وفي اعتقادي أن العلاقة بين المهالبة وثورة عبد الله بن الزبير كانت

(١) وفيات ، ج ٥ ، ص ٣٥١ .

علاقة طبيعية ومنطقية ، فالمهالبة منذ ظهورهم على مسرح الأحداث كانوا يمثلون أسرة محاربة يتسم قادتها بالشجاعة والبطولة في ميدان الحرب والجهاد وكانت مناطق نشاطهم في هذه الفترة التي نحن بصدددها في أقاليم العراق وما يليها شرقا ، ولما كانت معظم هذه المناطق قد أصبحت — بصورة أو بأخرى — ضمن نفوذ عبد الله بن الزبير ، فإنه من الطبيعي أن يسعى ابن الزبير الى ضم القادة البارزين في هذه المناطق الى جانبه ، ومنهم آل المهلب * ومما ساعد على ذلك غياب التأثير الأموي ، وانقطاع أجزاء كبيرة من الدولة ، وانشغال الأمويين بقضية الوراثة والبحث عن خليفة بعد معاوية الثاني *

وكانت خراسان في ذلك الوقت مازالت في حالة اضطراب ، فأقبل المهلب الى البصرة في طريقه الى خراسان سنة ٦٥هـ ، وكانت شوكة الأزارقة بقيادة نافع بن الأزرق قد اشتدت على المدينة ، مما اضطر أمير البصرة عبد الله بن الحارث الى محاولة صد الأزارقة عن مدينته ، ودارت المعارك العنيفة بين الجانبين ، ورغم مقتل زعيم الأزارقة سنة ٦٥هـ الا أن الحرب استمرت وكانت الغلبة فيها للأزارقة الذين تمكنوا من الاقتراب من البصرة وأصبحت قريبة المنال « فأتى أهلها الأحنف بن قيس وسألوه أن يتولى حربهم ، فإشار عليهم بالمهلب بن أبي صفرة » (٢) *

وفي هذه الأثناء كان المهلب قد قدم من قبل عبد الله بن الزبير

(٢) راجع : ابن أعثم ، م ٣ ، ص ٢٠١ ، نهاية الأرب ، ج ٢٠ ،

ص ٣٢٣ — ٣٢٤ .

حاملًا تقليده ولاية خراسان فخرج اليه أشراف أهل البصرة وكلموه في حرب الأزارقة ويفهم من رواية اليعقوبى المكانة المرموقة التى كان يتمتع بها المهلب في البصرة وبين أهلها ، فمن بين ما قاله أهل البصرة للمهلب في هذا الموقف « أنت شيخ الناس وسيف العراق ، وقد ترى ما فيه أهل مصرك من هذه الخوارج المارقة ، والاقامة على منع بلدك والذب عن حريمك أولى من خراسان »^(٣) . ويبدو أن المهلب رغب في أن يكون تصديه للأزارقة بتكليف رسمى من جانب عبد الله بن الزبير، وتشير المصادر الى كتاب وصل الى المهلب من ابن الزبير بتأجيل ولايته على خراسان واسناد مسئولية التصدى للأزارقة له ، وجاء في هذا الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عند أمير المؤمنين (عبد الله بن الزبير) . . . فان عاملى بالبصرة كتب الى كتابا يذكر فيه أن قوما من خوارج الأزارقة المارقة . . . قد عزموا على أن يقبلوا الى أرض البصرة لقتل الرجال وأخذ الأموال وهتك الحريم وسبى الذرية ، وقد رأيت أن تكون أنت الذى تلى قتالهم ، لأنك ميمون الطلعة ، مبارك على أهل مصرك ، والأجر في ذلك أعظم من كل أجر . فسر رحمك الله راشدا ، فانه لن يفوتك من سلطاننا خراسان ولا غير خراسان »^(٤) .

ونكن المهلب علق موافقته على حرب الأزارقة والتصدى لهذه المهمة الخطيرة بشروط ، فقال : « والله ما أسير اليهم الا أن يجعلوا الى ما غلبت عليه ويعطونى من بيت المال ما أقوى به من معى ، فأجابوه

(٣) تاريخ اليعقوبى ، ج ٢ ، ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٤) راجع : تاريخ الطبرى ، ج ٥ ، ص ٦١٥ - ٦١٦ ، ابن أعمش ،

م ٣ ، ص ٢٠٢ .

الى ذلك^(٥) وكتبوا بذلك كتابا وأرسلوه الى عبد الله بن الزبير فأمضاه^(٦) .

ويفهم مما سبق أن المهلب كان حريصا أن تكون حركته في اتجاه الأزارقة بموافقة جميع الأطراف ، وفي نفس الوقت أن يؤمن لجيشه حاجته من التمويل خلال المعارك التي كان يتوقع لها أن تستغرق وقتا طويلا ، لذلك كان حرصه أن يكون له إيراد الأراضي التي تقع في يده ويستردها من الأزارقة .

ويمكن المهلب من حشد جيش يقدر بحوالي اثني عشر ألفا^(٧) معظمهم من قومه أزد عمان ، ونظر في بيت مال البصرة فكان لا يفي بحاجة الجند ، فتفاوض المهلب مع تجار البصرة ، وأوضح لهم أن تجارتهم قد كسدت لانقطاع مواد الأهواز وفارس ، وتوقفت حركة التجارة لسيطرة الأزارقة على هذه المناطق ، وسألهم معاونته بالمال . ووعدهم بأن يمكنهم من تجارتهم ويرد لهم حقوقهم ، فاستجاب تجار البصرة « وأخذ المهلب من المال ما يصلح به عسكره »^(٨) .

وهكذا تصدى المهلب المهمة حرب الأزارقة ابتداء من سنة ٦٥هـ وستصبح هذه المهمة أهم مشاغله فيما تلا ذلك من سنين حتى في الفترات التي سوف تسند فيها هذه المهمة الى غيره — وهي قليلة —

(٥) تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ٢٦٥ ، نويري ، نهاية الارب ، ج ٢٠ ،

ص ٣٢٤ .

(٦) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ١٩٦ .

(٧) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ١٩٦ .

(٨) المبرد ، الكامل ، ص ٢٢٦ .

فقد كان يتابع الأحداث ، ويسدى النصح ، ويبدى الرأى . وقد دارت بين آل المهلب وبين الأزارقة فى هذه المرحلة معارك ضارية كانت فيها انتصارات وهزائم ، وظهرت فيها بطولات وتضحيات عظيمة من كلا الطرفين ، وسجلتها بالتفصيل معظم المصادر التى بين أيدينا وبههنا من هذه المعارك ما يلقى الضوء على موضوعنا .

شارك آل المهلب منذ البداية فى جيش المهلب الذى تصرف من البصرة سنة ٦٥هـ فكان على ميمنته ابنه يزيد وحبيب ، وعلى ميسرته ابنه المغيرة وقبيصة ، وعلى جناح ميمنته ابنه عبد الملك ، وعلى جناح ميسرته ابنه المفضل وفى كمينه ابنه زياد ومروان ، وبين يديه ابنه محمد وأخوه المعارك بن أبى صفرة (٩) .

وقبل بداية المعارك ضد الأزارقة ، كان على المهلب أن يوضح أهداف الحرب ودور الرجال وأهمية تضحياتهم ، فوقف بين رجاله ، ووجه كلامه الى بنيته وهو يعنى جميع الجنود فقال لهم «يا بني : ان أول غزوكم انصافكم لآخوتكم من المسلمين ، وأن تؤاسوهم بأنفسكم ، فباشروا الحرب بأنفسكم ، واستقبلوا حر السيوف بوجوهكم وسنان الرماح بصدوركم ونحوركم ، وأعلموا انها منزلتان : اما شهادة ، واما ظفر » (١٠) .

وكان على المهلب فى بداية المعارك أن يزيح الأزارقة الذين يرابطون على الضفة الشرقية لنهر الفرات . وأن يعيد الجسر الذى يربط الضفتين ، ليتمكن من العبور بجيشه ، فأرسل ابنه المغيرة فى السفن ،

(٩) ابن أعثم ، ٣ ، ص ٢٠٤ .

(١٠) نفسه .

ونزل المغيرة على الضفة الشرقية للنهر وحارب الأزارقة فثغلهم وازاحهم عن مواقعهم حتى تمكن المهلب من إعادة عقد الجسر وعبر بكامل جيشه مما اضطر الأزارقة الى الانسحاب ، فنهى أصحابه عن اتباعهم (١١) .

وكانت سياسة المهلب العسكرية في تعامله مع الأزارقة ، تعتمد على التريث ، ودراسة الموقف بدقة ، وعدم التسرع في الاشتباك أو خوض معارك قد تؤدي الى نتائج عكسية ، فأقام المهلب في موقعه أربعين يوما يجبي الخراج وينظم قواته ، وآتت سياسته نتائجها في تقوية جيشه ، وتقوية جسور الثقة بينه وبين أهل البصرة وخاصة التجار « ففضى المهلب التجار وأعطى أصحابه ، فأسرع اليه الناس رغبة في مجاهدة الأزارقة ، ولما في الغنائم والتجارات » (١٢) حتى بلغ عدد قواته خلال هذه المدة ما يزيد على عشرين ألفا (١٣) .

وتبع المهلب الأزارقة في حذر ، وكانوا قد انسحبوا الى الأهواز ، ورغم ما تحت يده من جيش كثيف الا أنه كان حذرا « ولما نزل المهلب بالقوم خندق عليه ، ووضع المسالحي ، وأذكى العيون ، وأقام الأحراس . . . وأبواب الخنادق عليها رجال موكلون بها ، فكانت الأزارقة اذا أرادوا بيات المهلب ، وجدوا أمرا محكما ، فرجعوا ، فلم يقاتلهم انسان قط كان أشد عليهم ولا أغيب لقلوبهم منه » (١٤) . ولم يكن المهلب يكتفى بهذا بل كان يدس الجواسيس الى عسكر الأزارقة فيعرف أخبارهم

(١١) المبرد ، ص ٢٢٧ .

(١٢) نفسه .

(١٣) الحميري ، الروض المعطار ، ص ٢٤٨ (بيروت : ١٩٨٣) .

(١٤) تاريخ الطبري ، ج ٥ ، ص ٦١٧ ، الروض ، ص ٢٤٨ .

وتحركاتهم^(١٥) .

ودارت معارك عنيفة في منطقة الأهواز وما حولها بين الطرفين ،
برز فيها آل المهلب الذين كانوا يخوضون المعارك بين جنودهم ، وقتل
خلال هذه الفترة « المعارك بن أبي صفرة » بالقرب من نهر تيرى^(١٦) ،
ويبدو أن الأزارقة أرادوا أن يحسموا الموقف لصالحهم فتجمعوا بكل
حشودهم وأسلحتهم ، ليخوضوا معركة فاصلة ضد المهلب ، وكان
تجمعهم في منطقة سلى وسليرى بالأهواز^(١٧) .

ويفهم من وصف الطبرى لجيش الأزارقة آنذاك أنهم كانوا
يتفوقون على جيش المهلب في السلاح والعتاد « . . وجاءوا وهم أحسن
عدة ، وأكرم خيولا ، وأكثر سلاحا من أهل البصرة ، . . فجاءوا وعليهم
مغافر تضرب الى صدورهم ، وعليهم دروع يسحبونها وسوق من زرد
يشدونها بكلايب الحديد الى مناطقهم »^(١٨) .

والنتقى الجيشان في معركة قاسية ، وكثف الأزارقة هجومهم على
جيش المهلب حتى أحدثوا اضطرابا شديدا في صفوفه ، وكادت الهزيمة
أن تحيق بجيش المهلب « وضرب المهلب على رأسه ضربة منكرة فسقط
عن فرسه الى الأرض وأحدقت به بنوه فجعلوا يحامون عنه أشد
الحاماة . . »^(١٩) واستغل الأزارقة الموقف لبث الرعب في جيش المهلب ،

(١٥) المبرد ، ص ٢٢٨ .

(١٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ١٩٧ ، نهاية الأرب ، ج ٢٠ ،

ص ٣٢٥ .

(١٧) المبرد ، ص ٢٣٣ .

(١٨) طبرى ، ج ٥ ، ص ٦١٨ حوادث سنة ٦٥ ، الكامل ، ج ٤ ،

ص ١٩٩ .

(١٩) ابن أعمش ، م ٣ ، ص ٣٠٦ .

فنادى مناديهـم : « ألا ان المهلب قد قتل » (٢٠) فكان لهذا النداء تأثيره على معنويات الجند لولا أن تدارك المهلب الموقف وصعد الى تل قريب من ميدان المعركة « وأخذ ينادى فى شباب الأزـد وفتيان الـيـحمد (٢١) : أعـيـرونا جماعكم ساعة من نهار » (٢٢) « فثاب اليه جماعة من قومه أهل عمان » (٢٣) فاجتمع اليه منهم نحو ثلاثة آلاف سماهم الطبرى « سرية عمان » (٢٤) .

وقف المهلب فى هذه السرية بين قومه وقد شعر بالأمان والرضى ، وألقى فيهم كلمة تعبر عن ثقته الكاملة فى هذا العدد الصغير من رجاله الصامدين ، فهم خير من الذين أعطوا ظهورهم للأزارقة عندما احتدم القتال ، وفروا فى اتجاه البصرة ، وقال المهلب « فان الله ربما يكل الجمع الكثير الى أنفسهم فيهزمون ، وينزل النصر على الجمع اليسير فيظهرون ، ولعمري ما بكم الآن من قلة ، انى لجماعتكم لراض ، وانكم لأنتم أهل الصبر ، وفرسان أهل مصر ، وما أحب أن أحدا ممن انهزم معكم ، فانهم ان كانوا فيكم ما زادوكم الا خبالا » (٢٥) .

(٢٠) المبرد ، ص ٢٣٥ .

(٢١) الـيـحمد من الأزـد والـخـليل من بطن منهم يقال له الفـراهيـد (المبرد ،

ص ٢٣٦) .

(٢٢) طبرى ، ج ٥ ، ص ٦٢١ — ويكمل الطبرى الرواية فيقول : فأخذ

فتيان منهم يكرون فيقاتلون ثم يرجعون اليه ويقولون : يا ابا علقمة ، القدور تستعار ! .

(٢٣) الروض ، ص ٢٤٨ ، المبرد ، ص ٢٣٤ .

(٢٤) طبرى ، ج ٥ ، ص ٦١٨ .

(٢٥) نفسه .

وأراد المهلب أن يعوض قلة جيشه بالنسبة لجيش الأزارقة ، فأمر أصحابه بالاستعداد للهجوم استغلالاً لفرصة مطاردة بعض فرسان الأزارقة للمنهزمين من رجاله في اتجاه البصرة ، وأمرهم أن يجهز كل رجل عشرة أحجار وأن يعد محالً لهذه الحجارة ، لمفاجأة الأزارقة بضربات الحجارة « ٠٠ في وقت الغفلة ، فانها تصد الفارس وتصرع الراجل » (٢٦) . وزحف المهلب برجاله الى الأزارقة ، فما شعروا الا والمهلب يهاجمهم والحجارة تستعرض وجوههم من كل جانب ورجاله تحيط بهم وتعمل فيهم القتل ولم يمض الا وقت قصير حتى قتل زعيمهم «عبيد الله بن الماحوز» وقتلت أعداد كثيرة من الأزارقة واستولى المهلب على معسكرهم وما فيه (٢٧) وقد حقق آل المهلب وقومهم من أهل عمان النصر الحاسم في هذه المعركة على الأزارقة ، وكان المغيرة بن المهلب أحد الأبطال المشهود لهم خلالها ، فوصفه ابن أعثم بأنه كان « أشد ما تكون الحرب ، أشد ما يكون تبسما » (٢٨) .

وكانت أخبار هزيمة المهلب في بداية المعركة قد وصلت الى البصرة ، وتناقل الناس خبر قتل المهلب ، ونعى بالبصرة ، فنسى الناس رجالهم وأقام أهل كل دار ييكون المهلب لا يسألون عن أحد غيره ، واجتمع بعضهم في مسجد البصرة ييكون (٢٩) وهم معظم الناس بالنقلة الى البادية خوف السلب والنهب من جانب الأزارقة الذين توقعوا اقتحامهم للمدينة بين لحظة وأخرى ، لذلك ما كاد المهلب يوقع بالأزارقة حتى

(٢٦) المبرد ، ص ٢٣٥ :

(٢٧) الروض ، ٢٤٨ .

(٢٨) ابن أعثم ، م ٣ ، ص ٢٠٦ ، المبرد ، ص ٢٣٥ — ٢٣٧ .

(٢٩) ابن أعثم ، نفسه ، ص ٢٠٨ .

بعث الرسل الى البصرة ليشير أهلها بالنصر ويعلمهم بسلامته ، وكتب كتابا بذلك الى والي البصرة ، فأقام الناس ، وتراجع من كان قد هرب منهم خوف الأزارقة^(٣٠) وفي نفس الوقت فقد وضع المهلب كمائن من رجاله وفرسانه في طريق عودة الأزارقة الذين كانوا يطاردون فلول الجيش المنهزم في اتجاه البصرة فأوقعوا بهم وقضوا على معظمهم الا من فر منهم وكان ذلك سنة ٦٦هـ^(٣١) .

انصرفت فلول الأزارقة بعد هزيمتهم في سلى وسلبرى ليعيدوا جمع صفوفهم من جديد ، ويبدو أن الأزارقة بعد الضربة العنيفة التي وجهها لهم المهلب في هذه المعركة ، قد أدركوا أنهم يحاربون المهلب في شخصه ، وأنه أخطر أعدائهم ، وأن حسن قيادته وذكائه العسكري ومقدرته الكبيرة على ادارة المعارك وتحويل الهزيمة الى نصر ، هي أسباب نكبتهم في معركتهم الأخيرة ، لذلك عمد الأزارقة الى التخلص من المهلب ، ونصبوا كميناً لاغتياله ، وندبوا لهذه المهمة مائة فارس من خير فرسانهم ، ولكن المهلب كشف أمر الكمين ، وأفشل ما دبره الأزارقة لقتله^(٣٢) ، وانسحب الأزارقة الى كرمان وأصبهان ، وسيطر المهلب على إقليم الأهواز ، وأقام بقية سنة ٦٦هـ يجبي الخراج ووزع الأرزاق على جنده ، وجذب الرخاء والعطاء السخي أعدادا كثيرة من أهل البصرة ، فأنبتهم المهلب في الديوان ورزقهم حتى بلغت جيوشه ثلاثين ألفا^(٣٣) وظل المهلب في موضعه بالأهواز مقيما على حرب

(٣٠) الروض ، ص ٢٤٨ ، المبرد ، ص ٢٤٠ .

(٣١) الكامل ، ج ٤ ، ص ١٩٦ - ٢٠٠ .

(٣٢) راجع التفاصيل : المبرد ، ص ٢٣٩ .

(٣٣) تاريخ يعقوبى ، ج ٢ ، ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

الأزارقة حتى عزل الحارث بن عبد الله عن ولاية البصرة ووليها مصعب ابن الزبير من قبل أخيه سنة ٦٧هـ (٣٤) .

وعندما أقبل مصعب بعث إلى المهلب وهو على حرب الأزارقة رسالة يفهم منها التقدير الذي كان يحظى به آل المهلب بسبب جهودهم في صد خطر الأزارقة ، وجاء فيها « .. فان الناس لو أعطوا كل انسان قدره لقدمت في العرب قاطبة غير مدافع .. فان طاعتك وحسن بلائك بلغ بك عندنا كل الذي تحب ، وما نرجو لك به من ثواب الله أجزل وأفضل ، وأنت عندنا الأمين ، ولك بذلك عندنا الكرامة والفضيلة » (٣٥) .

أراد مصعب بن الزبير مواجهة خطر حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي في العراق على نفوذ الزبيريين ، لاسيما وأن المختار بعد انتصاره على جيوش الأمويين وانتقاه من المشاركين في مذبة كربلاء ، كانت قد خضعت له الكوفة وسواها الى حلوان والرى وما والاها ، وكانت الجزيرة بأجمعها في قبضة ابراهيم بن الأشتر ، وكان الأمويون يسيطرون على الشام ومصر أما عبد الله بن الزبير فكان مسيطرا على الحجاز واليمن ، ومصعب واليا على البصرة والمهلب بن أبي صفرة من قبل مصعب قائما على حرب الخوارج . وأدرك مصعب أهمية أن يتخلص من المختار حتى يصفو له العراق وكان يرغب في أن يحشد لهذا الأمر أعظم قواده ، ومع علمه بخطورة الأزارقة على العراق الا أنه كان حريصا على وجود المهلب الى جانبه في صراعه مع المختار ، فكتب مصعب كتابا

(٣٤) النويرى ، ج ٢١ ، ص ٤٤ .

(٣٥) ابن أعثم ، م ٣ ، ص ٢٢٠ .

الى المهلب يخبره بعزمه على المسير الى الكوفة لحرب المختار ، ورغبته في أن يكون معه ، وطلب منه أن يولى بعض أولاده حرب الأزارقة ويقتل اليه بالبصرة^(٣٦) وأراد مصعب أن يتأكد من موافقة المهلب على الحضور اليه ، فأرسل كتابه مع أحد قادته الموثوق بهم ، وهو محمد بن الأشعث بن قيس الكندي^(٣٧) ليقتنعه بأهمية وجوده بالبصرة في هذه الفترة الحرجة ، والتقى ابن الأشعث بالمهلب بسابور ، ويبدو أن المهلب كان كارها أن يترك موقعه في مواجهة الأزارقة^(٣٨) ولكن ابن الأشعث شرح له خطورة الموقف في العراق ، فاستجاب المهلب .

قدم المهلب الى البصرة « في تجمل عظيم ومال ورجال وعدد وعدد وجيش كثيف ، ففرح به أهل البصرة »^(٣٩) ، ورحب مصعب بقدوم المهلب الى البصرة ، وتأهب لقتال المختار وجعل على كل قبيلة من قبائل العرب رئيسا منها ، فكان المهلب بن أبي صفرة على قبائل الأزاد^(٤٠) وتولى قيادة ميسرة الجيش^(٤١) وأبلى المهلب ورجاله بلاء حسنا في حربهم ضد المختار^(٤٢) وتمكنت قوات مصعب بن الزبير بعد معارك عنيفة من التخلص من المختار الذي قتل أثناء القتال وسيطر مصعب على ما تحت يده من أملاك^(٤٣) .

-
- (٣٦) النويري ، ج ٢١ ، ص ٤٥ .
 - (٣٧) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٨ ، ص ٣٠٨ (القاهرة ١٩٣٣) .
 - (٣٨) طبري ، ج ٦ ، ص ٩٤ .
 - (٣٩) ابن كثير ، نفسه .
 - (٤٠) ابن أعمم ، م ٣ ، ص ٣١٨ .
 - (٤١) ابن خلدون ، م ٣ ، ص ٦٨ .
 - (٤٢) راجع التفاصيل : النويري ، ج ٢١ ، ص ٤٦ — ٤٨ .
 - (٤٣) ابن أعمم ، م ٣ ، ص ٣٢٦ .

وبعد أن تخلص مصعب بن الزبير من خطر المختار ، كتب الى ابراهيم بن الأستر يدعو الى طاعته ، فأقبل اليه بالطاعة ، فولى مصعب المهلب بن أبي صفرة الأقاليم التي كان يسيطر عليها ابن الأستر وهي الموصل والجزيرة واردينية وأذربيجان وعزله عن حرب الأزارقة (٤٤) ويبدو أن هدف مصعب من ذلك حسب رواية ابن خلدون « ليكون بينه وبين عبد الملك » (٤٥) .

ومن المرجح أن عزل المهلب عن حرب الأزارقة وتوليته مكان ابراهيم بن الأستر لم يكن الهدف الحقيقي منه حماية العراق من الخطر المتوقع من عبد الملك بن مروان كما ذكر ابن خلدون ، ولعل ما رواه ابن خلدون هو ما أعلنه مصعب لتبرير هذا التصرف ، لأن ابراهيم بن الأستر — بما عرف عنه من حقد على الأمويين — كان يمكنه أن يظل على ما تحت يده ، وأن يتولى الوقوف بين العراق والشام ، والسبب الحقيقي وراء عزل المهلب عن حرب الأزارقة كما تشير المصادر هو أن آل المهلب كانوا موضع حسد من جانب عناصر كثيرة من أهل العراق ، ومن القيسية على وجه التحديد لما حازوه من ثروات طائلة ، وما اتصفوا به من كرم وسخاء كان مضرب الأمثال ، وقد أتاح لهم ذلك ، الشرط الذي أخذه المهلب على الزبيريين قبيل بداية حرب الأزارقة سنة ٦٥هـ بأن يجبي أموال الأقاليم التي يسيطر عليها ، والتي يستردها من قبضة الأزارقة — كما سبق أن ذكرنا — بالإضافة الى ما اتصف به المهالبة من بطولات خلال المعارك جعلتهم موضع تقدير واحترام الخاصة والعامة ، ويبدو أن عناصر من الحاقدين على المهلب دست عليه عند مصعب ، وقال قائلهم « ان المهلب رجل يحب مطاولة العدو لما يجبي من البلاد ، ولو عزلته ووليت غيره حرب الأزارقة

(٤٤) طبرى ، ٦ ، ص ١١٢ ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ .

(٤٥) تاريخ ابن خلدون ، م ٣ ، ص ٧٢ .

لكان في ذلك هلاك العدو وتوفير المال على أمير المؤمنين « (٤٦) فاستجاب مصعب لهذا الرأي وأحدث تغييرا في القيادات فوجه عمر بن عبيد الله ابن معمر التميمي على فارس ، وأسند اليه مهمة حرب الأزارقة وأمر المهلب بالتوجه الى الموصل والجزيرة وأرمينية (٤٧) .

ويبدو أن عمر بن عبيد الله كان مقتنعا بما قيل عن المهلب من اطالة أمد الحرب لجبى الأموال ، وكان يظن أنه يمكنه أن يحسم المعارك معهم ، فلما سار الى خراسان كتب أبياتا جاء فيها :

قل للأزارق الذين تجمعوا بسابور انى لست مثل المهلب
يقاتلكم حتى اذا ما رآكم أقام فلم يبعد ولم يتقرب
وكان امرؤ يجبى الخراج بكيده يخرب أخلاق البلاد لجلب
فاطمعكم فيه تقارب خطوه اليكم وهذا منه شبه التلعب (٤٨)

والعجيب في الأمر أن الذى رد على ابن معمر ودحض ادعاءه على المهلب في هذه الأبيات هو عبيدة بن هلال اليشكري أحد زعماء الأزارقة فقال :

تأن ولا تعجل علينا ابن معمر فلست وان أكثرت مثل المهلب
ولا لك في الحرب المحلب حظة ولا لك من يفديك بالأم والأب (٤٩)

وهكذا يتضح ادراك الأزارقة لقوة شكيمة المهلب في الوقت الذى يطعن فيه ابن معمر في قدرته العسكرية . وقد جنى ابن معمر نتائج

(٤٦) ابن اعثم ، م ٣ ، ص ٢٢٠ .

(٤٧) طبرى ، ج ٦ ، ص ١١٩ ، النويرى ، ج ٢٠ ، ص ٥٢٥ .

(٤٨) ابن اعثم ، م ٣ ، ص ٢٢١ .

(٤٩) نفسه ص ٢٢٢ — هكذا وردت الأبيات في المصدر .

سوء تقديره لقوة الأزارقة والمهالبة .. فلما تحرك بجيشه في اتجاه سابور ، كانت الأزارقة تراقب حركته وأفسحوا له الطريق حتى اقترب منهم ، وأمسكوا عنه ومكنوه ، حتى اذا كان الليل اذ الأزارقة قد داهمته من أربع جهات ، على كل جهة منها رئيس من رؤسائهم : عبيدة ابن هلال اليثسكزي ، وعمرو القنا العنبري ، وعطية بن الأسود الحنفي وقطري بن الفجاءة المازني ، واحتدم القتال بين الجانبين ، وحمل قطري على ابن معمر وضربه بعمود على بيضته فهشمها على رأسه فولى هاربا حتى اختلط بأصحابه ، ورفعت الأزارقة المشاعل على رؤوس الجبال وأطراف الرماح فتحول الليل الى نهار واشتد القتال .. وفي هذا الموقف الصعب أدرك ابن معمر سوء تقديره وتسرع ، فالتفت الى رجل من عبد القيس كان قد شارك في حروب المهلب ضد الأزارقة ، وسأله كيف كان المهلب يصنع في مثل هذا الموقف ، فرد عليه الرجل : « أيها الأمير ! انه قد ذهب الرأي وبقي الصبر » (٥٠) وانهزم أصحاب ابن معمر هزيمة قاسية ، وأخذتهم سيوف الأزارقة فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وزحفوا على معسكرهم فاستباحوه وأخذوا كل ما فيه ثم رجعوا الى مقرهم في سابور بالغنائم .

والطريف في الأمر أن عمر بن عبيد الله بن معمر أراد أن ينحي باللائمة على جنده من أهل البصرة ويحملهم مسئولية ما لحق به من هزيمة ، واتهمهم بعدم الاخلاص في قتال الأزارقة وهم تحت قيادته مثل اخلاصهم للمهلب ، واتهمهم بالتعصب وقال لهم : « انكم تقولون هذا رجل قرشي حجازي ، خيره لغيرنا وشره لنا » (٥١) ، فرد عليه أحد

(٥٠) راجع التفاصيل : ابن اعثم ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٥١) المبرد ، ص ٢٤٣ .

فرسان الأزد قائلاً: « أيها الأمير ، ان المهلب كان يقاتل بنا قتال الصعلوك ، ويسوسنا سياسة الملوك ، حتى سكنا إليه في الليل وآنسنا إليه في النهار » (٥٢) .

واستمرت المعارك بعد ذلك بين الأزارقة وبين ابن معمر واشتبك الجانبان في معارك غير حاسمة أسهب المؤرخون في ذكر تفاصيلها (٥٣) ، وكان أهم انجاز للأزارقة في ذلك الوقت أن تمكنوا من اختراق صفوف جيش ابن معمر الى الأهواز مما أغضب مصعب بن الزبير عليه ، واضطر الى الخروج بنفسه لحماية البصرة من الوقوع في يدهم ، فأتجهاوا الى الكوفة ولكن نائب مصعب عليها تمكن من ردهم فعادوا الى الري واستولوا عليها بعد قتل واليها يزيد بن الحارث ، وأثناء ذلك قتل زعيم الأزارقة الزبير بن الماحوز فولوا عليهم قطرى بن الفجاءة الذى انسحب الى كرمان وجبى الأموال وأعاد تنظيم صفوفه ثم اتجه الى الأهواز وحقق سلسلة من الانتصارات حتى أصبح يهدد البصرة ، وكان عامل البصرة لمصعب بن الزبير سنة ٦٨ هـ هو الحارث بن أبى ربيعة فكتب له بخطر الأزارقة على مدينته ونصحه بأن ليس لهم الا المهلب (٥٤) . أدرك مصعب بن الزبير الخطأ الذى وقع فيه عندما أرسل المهلب الى الموصل وعزله عن حرب الأزارقة ، فاستدعى مصعب المهلب من الموصل ، وأعاد اليه مهمة حرب الخوارج والمسير اليهم وأعاد الوضع على ما كان عليه قبل ذلك بأن بعث ابراهيم بن الأثير الى عمله . وجاء المهلب حتى قدم البصرة ، وانتخب الناس ، وسار بمن أحب ثم توجه نحو

(٥٢) ابن اعثم ، ٣م ، ص ٢٢٤ .

(٥٣) راجع تفاصيل المعارك : الطبرى ، ج ٦ ، ص ١٢٥ - ١٢٧ .

(٥٤) طبرى ، نفسه ص ١٢٧ .

الأزارقة والتقى بهم في معارك عنيفة في منطقة «سولاف» « فاقنتلوا بها ثمانية أشهر أشد قتال رآه الناس » (٥٥) .

استمر المهلب في صراعه ضد الأزارقة حتى سنة ٥٧١ هـ وفيها تحرك الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الى العراق لضمها الى حظيرة الدولة ، وكان مصعب مقيما وقتها بالبصرة ويبدو أنه فكر في الاستعانة بالمهلب بن أبي صفرة ليوقف بجانبه في هذا الوقت العصيب ، ويقال انه استدعاه ليستشيريه ويستعين به في تقدير الحالة ، وكان رأى المهلب أن يبقى مع مصعب حتى يمكنهما صد خطر عبد الملك ، ولاسيما أن أهل العراق قد مالوا الى جانبه وكاتبوه (٥٦) . ولكن أهل البصرة كان لهم رأى آخر ، فقد اشترطوا على مصعب أنهم لن يسيروا معه لحرب عبد الملك بن مروان الا اذا اطمأنوا على مصرهم من خطر الأزارقة ، وأن يظل المهلب على حربهم فقد كانت لهم تجارب سابقة في هذا الشأن وأثبت المهلب انه القائد الوحيد الذي استطاع التصدي للأزارقة ومنع خطرهم عن البصرة ، وقال مصعب للمهلب « وأنا أكره اذا سار عبد الملك الى ألا أسير اليه ، فاكفني هذا الثغر » (٥٧) .

ورغم أن مصعب بن الزبير قد حاول أن يحشد جيشا قويا لمواجهة عبد الملك واستدعى ابراهيم بن الأستر من الموصل وجعله على مقدمته في حربه مع عبد الملك (٥٨) الا أن عبد الملك تمكن من ايقاع الفرقة بين

(٥٥) طبرى ، ج ٦ ، ص ١٢٧ ، نویری ، ج ٢٠ ، ص ٥٢٧ .

(٥٦) النويری ، ج ٢١ ، ص ٥٠ .

(٥٧) نفسه ص ١٢١ ، قارن : الاغانی ، ج ١٧ ، ص ١٢٣ .

(٥٨) ابن خلدون ، م ٣ ، ص ٧٢ ،

أصحاب مصعب وانتهى الأمر بقتله^(٥٩) ولما سمع أهل البصرة الذين كانوا يقاتلون الأزارقة دفعا عن مصرهم خبر قتل مصعب ، بايعوا عبد الملك بن مروان ، وبايع قائدهم المهلب بن أبي صفرة^(٦٠) فكافأه عبد الملك بأن أقره على ما تحت يده وأسند اليه مهمة حرب الأزارقة وشكره وأثنى عليه ثناء كثيرا^(٦١) .

وهكذا انتقل ولاء المهلب بن أبي صفرة من الزبيريين الى الأمويين في أعقاب مقتل مصعب بن الزبير ، وسيطرة عبد الملك على العراق سنة ٥٧١ هـ ومازال عبد الله بن الزبير يضارع الأمويين من مقره في مكة ، ويبدو أن المهلب قد أدرك اتجاه رياح التغيير وأن الظفر في النهاية سيكون للدولة الأموية ، وقد حدث ما توقعه حيث قضى الأمويون على ثورة عبد الله بن الزبير بقتله في مكة سنة ٥٧٣ هـ^(٦٢) .

(٥٩) راجع التفاصيل ، طبرى ، ج ٦ ، ص ١٥٨ — ١٥٩ .

(٦٠) نویری ، ج ٢١ ، ص ١٢٧ ، ابن خلدون ، ج ٣ ، ص ٨٠ .

(٦١) ابن كثير ، البداية ، ج ٨ ، ص ٣٤٨ .

(٦٢) راجع : طبرى ، ج ٦ ، ص ١٨٧ وما بعدها .

الفصل الثالث

ولاء آل المهلب للدولة الأموية حتى القضاء على الأزارقة (٥٧٧هـ)

ذكرنا أن المهلب بعد مبايعته لعبد الملك بن مروان سنة ٥٧١ هـ ، أقره الأخير على اقلليم الأهواز وشكره على موقفه وأثنى عليه . وفي سنة ٥٧٣ هـ استعمل عبد الملك على ولاية البصرة « خالد بن عبد الله بن أسيد » الذي باذر إلى عزل المهلب عن حرب الأزارقة وأسند إليه خراج الأهواز ، ولم يستمع إلى نصيحة وجوه أهل البصرة بأن يترك أمر حرب الأزارقة للمهلب لحرايته وخبرته بهم ، ولكن خالدا كان يحقد على المهلب لما وصل إليه من شهرة ، وما يتمتع به من تقدير الخليفة ، وقال لمن حوله من بنى عمومته : « يامعشر قريش .. والله لقد ذهب المهلب بحظ هذا المصر ، وأهمل المؤمنين يظن أن أحدا لا يقوم مقام المهلب » (١) . وبعث خالد أخاه عبد العزيز بن عبد الله مكان المهلب على حرب الأزارقة (٢) على أمل أن يحوز بعض ما ناله آل المهلب من علو المكانة وتقدير الخليفة الأموي . ولكن النتائج كانت مخيبة للآمال إذ خرج عبد العزيز في اتجاه فارس وجعل يطوى البلاد حتى وصل مدينة يقال لها جور (٣) من أرض

(١) ابن اعثم ، ٣ ، ص ٤٠٦ .

(٢) طبري ، ج ٦ ، ص ١٦٩ ، نویری ، ج ٢١ ، ص ١٤٧ .

(٣) مدينة بفارس ، بينها وبين شيراز عشرون فرسخا ، راجع معجم

البلدان لياقوت ، ج ٣ ، ص ١٦٤ .

فارس ، فأرسل له قطرى بن الفجاءة زعيم الأزارقة أحد رجاله ويدعى « صالح بن مخراق » فى عدد من الفرسان ، وكمّن صالح لجيش عبد العزيز وهو يسير ليلا فى غفلة وعلى غير تعبئة ، وانقض عليه من كل مكان فانهزم عبد العزيز بالناس ، وأسرت زوجته ابنة المنذر ابن الجارو ووضع صالح السيف فى أصحابه فقتل منهم أعدادا كبيرة^(٤) وفر عبد العزيز من ميدان المعركة حاملا الخزى والعار الأسر زوجته ، وقد عبر عن هذا الموقف أحد الشعراء فى قصيدة جاء فيها :

عبد العزيز فضحت جيشك كلهم وتركتهم صرعى بكل سبيل
وتركت جيشك لا أمير عليهم فارجع بعار فى الحياة طويل
ونسيت عرنسك اذ تقاد سبية تكي العيون برنة وعويل^(٥)
ولما وصل خبر هزيمة عبد العزيز بن عبد الله الى عبد الملك بن مروان
غضب لهذا التصرف من جانب والى البصرة بعزله المهلب عن حرب
الأزارقة ، ووجه اليه كتابا عنيفا يؤكد مكانة المهلب العالية ، وتقدير
الخلافة الأموية لجهوده وحسن بلائه ، وجاء فى كتاب عبد الملك
« .. قبح الله رأيك حين تبعث أخاك أعرابيا من أهل مكة على القتال ،
وتدع المهلب يجبى الخراج ، وهو الميمون النقيية ، الحسن السياسة ،
البصير بالحرب ، المقاسى لها ، ابنها وابن أبنائها ، أنظر أن تنهض
بالناس حتى تستقبلهم بالأهواز ، وقد بعثت الى بشر بالكوفة^(٦) أن

(٤) طبرى ، ج ٦ ، ص ١٦٩ .

(٥) نويرى ، ج ٢١ ، ص ١٤٨ ، ابن اعثم ، م ٣ ، ص ٤١١ ، البطاش ،

ص ٤٧ .

(٦) هو بشر بن مروان ، أخو الخليفة عبد الملك بن مروان وكان واليا

على الكوفة من قبل أخيه عبد الملك (راجع : طبرى ، ج ٦ ، ص ١٦٩) .

يمدك بجيش ، فسر معهم ولا تعمل في عدوك برأى حتى يحضره المهلب والسلام» (٧) .

ويعلق الطبرى على رسالة عبد الملك الى خالد بن عبد الله والى البصرة ، بأن أكثر ما شق على نفس والى البصرة هو اتخضاع رأيه في قتال الأزارقة لرأى وتوجيهات المهلب ابن أبى صفرة (٨) .

وتجمعت جيوش الكوفة بقيادة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، والبصرة بقيادة خالد بن عبد الله ، والتقى الجميع بالأهواز بالمهلب ، وكانت القيادة لوالى البصرة الذى جعل المهلب على ميمنته وداود بن قحذم على ميسرته وزحفوا للقاء الأزارقة ورغم نصيحة عبد الملك لوالى البصرة بأن يستشير المهلب ويأخذ برأيه ، الا أن العصبية القبلية كانت عاملا مؤثرا ومسيطرا على مشاعر القادة في ذلك الوقت ، فعندما أشار المهلب على خالد بن عبد الله بأن يتحرز على السفن الكثيرة التى كانت بساحل الأهواز ويحتاط حتى لا يحرقها الأزارقة ، لم يصنع اليه ، ولم يمتص وقت طويل الا وكان الأزارقة قد أشعلوا فيها النار (٩) ، ورغم هذا فان الأزارقة لم تدخل في قتال حاسم ضد جيش خالد ، ويبدو أن كثرة عدد ذلك الجيش ووجود المهلب بين صفوفه قد جعلهم يترثون في الصدام معه فانسحبوا الى عمق فارس ، فأرسل خالد صاحب ميسرته في أثرهم وعاد هو الى البصرة وأقام المهلب في الأهواز (١٠) .

(٧) نويرى ، ج ٢١ ، ص ١٤٩ .

(٨) طبرى ، ج ٦ ، ص ١٧١ .

(٩) نفسه ، ص ١٧٢ .

(١٠) نويرى ، ج ٢١ ، ص ١٤٩ .

ويفهم من النصوص التاريخية أن عبد الملك بن مروان كان يدرك أن حسم المعارك في المشرق ضد الأزارقة ليس له إلا المهلب ، وكان يثق في قدرته العسكرية وخبرته الطويلة في حرب الأزارقة ، فرغب عبد الملك في تقوية جيشه ومساندته لانجاز هذه المهمة ، وفي سنة ٨٧٤م أمر عبد الملك أخاه بشرا — وكان قد أضاف إليه ولاية البصرة مع الكوفة — أن يكلف المهلب بمحاربة الأزارقة ، وأن يترك له حرية اختيار من يشاء من أهل البصرة ، وأن يتركه في الحرب ورأيه ، وحذره من أن يقع فيما وقع فيه خالد بن عبد الله من قبل ، وهدده بالعزل إن فعل ذلك (١١) فاستدعى بشر المهلب ، وقرأ عليه كتاب عبد الملك بن مروان بتكليفه بحرب الأزارقة وأعطاه حرية أن يختار من يشاء من الرجال ، فأستند المهلب مهمة اختيار الجند الى أحد أقاربه وهو جديع بن سعيد الأزدى — خال ابنه يزيد — ، وأمره أن يأتي الديوان فيختار الناس (١٢) .

خرج المهلب من البصرة في عشرة آلاف رجل من قبيلته الأزد ، وثمانية آلاف من أخلاط القبائل ، ودخل المهلب بجيوشه الأهواز بعد أن رحل عنها الأزارقة الى أرض سابور بفارس لينظموا صفوفهم استعدادا لجولة جديدة من المعارك مع المهلب الذي أقام في الأهواز عدة أيام ثم رحل حتى نزل بمدينة رامهرمز في جموعه (١٣) .

شعر بشر بن مروان بالغضب الشديد على المهلب وملأت نفسه

(١١) ابن أعمم ، م ٣ ، ص ٤١٨ .

(١٢) طبرى ، ج ٦ ، ص ١٩٦ .

(١٣) ابن أعمم ، م ٣ ، ص ٤٢٢ .

الحقد لما حباه به الخليفة من علو المنزلة ، وشق عليه أن امرة المهلب على الحرب جاءت من قبل عبد الملك^(١٤) مما يجعله مقيدا لا يستطيع أن يبعث غيره فيتعرض لعقاب الخليفة مما أوغر صدره ، وفكر في الكيد له بإرسال أحد رجاله من الكوفة يشاركه القيادة ويستبد بالأمر ، ولا يستمع لمشورته ، فاختار لهذه المهمة عبد الرحمن بن مخنف وكما يروى ابن الأثير ، انفرد بشر بعبد الرحمن وجرضه على المهلب ، وقال له : « خالفه في أمره ، وأفسد عليه رأيه ، ولا تقبلن له مشورة ولا رأيا ، وتقصه وقصر به »^(١٥) . ولكن يبدو أن بشرا تد أساء الاختيار ، ولم يقق على الرجل المناسب لهذه المهمة ، فإذا كان ما يحرك بشر ضد المهلب هو العصبية القبلية ، فإن عبد الرحمن بن مخنف من الأزد ، وضاقه أن يسب بشر المهلب ويطعن في مقدراته وشرقه ، وعلق عبد الرحمن لخاصته على ما قاله بشر في حق المهلب « .. فترك أن يوصيني بالجند ، وقتال العدو .. وأقبل يغريني بأبن عمي كائن من السفهاء .. »^(١٦) . وتظاهر بأنه يستجيب لبشر وهو يضم في نفسه للتعاون مع المهلب والطاعة له .

وكان المهلب عندما وصل إلى رامهرمز والتقى بالأزارقة ، أقام خندقا حول معسكره وتحرز من مفاجآت الأزارقة التي خبرها لطول عهده بهم ، وأقبل جيش الكوفة بقيادة عبد الرحمن بن مخنف فنزل

(١٤) ابن خلدون ، م ٣ ، ص ٩١ .

(١٥) الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٦٧ .

(١٦) طبري ، ج ٦ ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .

بالقرب من معسكره ، ولم تمض عشرة أيام حتى جاء الى رامهرمز خبر وفاة بشر بن مروان في البصرة سنة ٨٧٤هـ (١٧) .

عندما بلغ جند البصرة والكوفة خبر موت بشر بن مروان لم يستقروا في مواقعهم لتحقيق الهدف الذي جاءوا من أجله الى رامهرمز ، فانسحب عدد كبير من الجند ، ويبدو من رواية الطبرى أن معظم الذين هربوا من رامهرمز وكرهوا مواصلة القتال هم من أهل الكوفة الذين كانوا تحت امرة عبد الرحمن بن مخنف ، وكان على رأس الهاربين بعض قواده مثل زخر بن قيس واسحاق بن محمد بن الأشعث ، ومحمد بن عبد الرحمن بن سعيد ، ورغم أن ابن مخنف أرسل في أثرهم ابنه جعفر ، وتمكن من رد اسحاق ومحمد الا أنهما تمكنا من الهرب مرة أخرى (١٨) وفشلت محاولات والى البصرة في اقناع هؤلاء الفارين بالعودة الى ميدان المعركة ، وكانوا مازالوا في الأهواز ، وأرسل لهم كتابا قرأه عليهم أحد رجاله به الكثير من التهديد والوعيد ان لم يستجيبوا لأوامره بالعودة ، ولكن زخر وأصحابه سخروا منه ولم يلتفتوا اليه (١٩) ، وأرادوا دخول الكوفة ، وكتبوا الى واليها عمرو بن حريث يستأذنه في الدخول ، ورغم رفض والى الكوفة لطلبهم الا أنهم تسللوا الى المدينة ليلا ، وظلوا بها حتى مجيء الحجاج سنة ٨٧٥هـ .

وبالنظر لما سبق من أحداث يمكننا أن نرجح أن معظم أصحاب

(١٧) الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٦٦ .

(١٨) طبرى ، ج ٦ ، ص ١٩٧ .

(١٩) الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٦٦ .

المهلب من أهل البصرة ظلوا في مكانهم في رامهرمز ، ولم يسارعوا الى الانسحاب ، وأن أصحاب ابن مخنف من أهل الكوفة هم الذين تركوا أماكنهم الى مصرهم ، مما يوحي بأن خروجهم كان عن غير رغبة واقتناع ، فآثروا السلامة بالعودة بعد موت أميرهم ، أو لأنهم رفضوا أن يعملوا تحت قيادة المهلب ، وقد علموا بتحريض بشر لابن مخنف بعدم التعاون معه وصادفوا غير ذلك ، ويفهم هذا المعنى من قول الحجاج بعد ولايته الكوفة مخاطبا هؤلاء الفارين « .. وبلغني رفضكم المهلب ، واقبالكم على مصركم عصاة مخالفين » (٢٠) .

وكيفما كان الأمر فإن القوات الباقية في رامهرمز رغم نقص عددها الا أن القيادة الحكيمة للمهلب والتعاون بينه وبين ابن مخنف قد مكنهما من اجتياز الأزمة المفاجئة بسلام ، ولم يتعرضوا لخطر الأزارقة ، فنحن لا نقرأ عن معارك دارت بين جيش المهلب والأزارقة منذ وفاة بشر بن مروان وحتى ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق سنة ٧٥هـ (٢١) .

ومما يؤكد ما ذهبنا اليه من أن معظم جيش المهلب بقي معه في رامهرمز بعد وفاة بشر بن مروان ، ما يشير اليه ابن أعثم من أن المهلب كان معه في رامهرمز في ذلك الوقت عشرة آلاف رجل وهو العدد الذي صاحبه عند خروجه من البصرة ووقف المهلب في أصحابه خطيبا وقال : « ان كنتم انما تقاتلون هذا العدو لبشر بن مروان فقد مات بشر ، وان كنتم انما تقاتلون لله فاثبتوا على ما أنتم عليه ، فان أمير المؤمنين

(٢٠) نویری ، ج ٢١ ، ص ٢١٠ .

(٢١) راجع : طبری ، ج ٦ ، ص ٢٠٢ ، نویری ، ج ٢١ ، ص ١٥٢ .

حي ، والعراق لابد لها من أمير » (٢٢) *

ومن جانب آخر نلاحظ أن الأزارقة الذين كانوا يراقبون معسكر المهلب قد فرحوا لموت بشر ، وتفرق أعداد كبيرة من جيش العراق ، ولكنهم في نفس الوقت كانوا يذكرون أن المهلب مازال في معظم رجاله من الأزد ، وأنه يمكنه أن يتصدى لهم بقوة إذا فكروا في استغلال الموقف لصالحهم ، ولما شاور قطري بن الفجاءة أصحابه فيما يجب عمله في هذا الموقف ، كان الرأي السائد هو ما قاله عمرو القنا « اترك المهلب ما تركك ، وأرده ما أرادك » (٢٣) ولذلك لم يغامر الأزارقة بالهجوم على المهلب رغم قلة قواته آنذاك . كما أن المهلب كان حريصا على أن يحشد اليه عبد الملك الجيوش في أسرع وقت ، ليتمكن من التصدي لأي هجوم من جانب الأزارقة ، فكتبه بذلك ، وحذر من خطورة الحال مع قلة ما تحت قيادته من جند ، وخطر الأزارقة على البصرة (٢٤) *

بين آل المهلب والحجاج (٧٥ - ٨٢ هـ)

كانت الأحداث التي وقعت عند رامهرمز في أعقاب وفاة بشر بن مروان والتي سبق شرحها ، من أهم العوامل التي جعلت عبد الملك بن مروان يبحث عن رجل قوى يتولى شؤون العراق ويقبض على زمام الأمور بيد من حديد ويعيد هبة الخلافة بين المتمردين وبين الأزارقة

(٢٢) راجع : ابن أعمش ، ٣ ، ص ٤٢٢ - ٤٢٣ .

(٢٣) ابن أعمش ، ٣ ، ص ٤٢٤ .

(٢٤) السعدي ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ١٢٦ .

الذين عاثوا فسادا في أقاليم الدولة الشرقية ، فلما تولى الحجاج بن يوسف الثقفي أمر العراق سنة ٧٥هـ كان من أول مهامه ارسال البعوث الى المهلب ، ورد هؤلاء الذين تمردوا على قيادتهم ، وتركوا الحرب دون مبرر ، وجاء في خطاب الحجاج المشهور الذي ألقاه في الناس من على منبر الكوفة قوله : « * قد بلغنى رفضكم المهلب ، واقبالكم على مصركم عصاة مخالفين ، واني اقسم لكم بالله لا أجد أحدا بعد الثالثة الا ضربت عنقه ، وانهبت داره » (٢٥) .

وأمر الحجاج العرفاء بحشد الرجال الى المهلب وأن يفتح باب الجسر في طريق فارس ليلا ونهارا ، ويروى الطبري أنه عبر الجسر في نهاية المهلة التي حددها الحجاج - وهي ثلاثة أيام - أعداد كبيرة من الناس ، بعد النداء الذي أطلقه الحجاج بأن من ظل في الكوفة من جند المهلب بعد الموعد فقد أحل دمه « فخرج الناس فازدحموا على الجسر ، وخرجت العرفاء الى المهلب وهو برامهرمز فأخذوا كتبه بالموافاة ، فقال المهلب : قدم العراق اليوم رجل ذكر (٢٦) اليوم قوئل العدو » (٢٧) .

وأتبع الحجاج حملته العنيفة في الكوفة بحملة مماثلة في البصرة ، وتوعد العصاة من جند المهلب ، وأمهلم ثلاثة أيام ، فسارع العسكر للالتحاق بفرقهم وخرج الحجاج بنفسه متوجها الى ميدان الصراع مع الأزارقة ، حتى اقترب من معسكر المهلب فنزل في «رستقباد» على

(٢٥) طبري ، ج ٦ ، ص ٢٠٤ .

(٢٦) أبو هلال العسكري ، الأوائل ، ج ٢ ، ص ٦٧ (الزياض ١٩٨١) .

(٢٧) طبري ، ج ٦ ، ص ٢٠٧ ، نویری ، ج ٢١ ، ص ٢١٢ .

بعد ثمانية عشر فرسخا من رامهرمز وذلك في شعبان سنة ٧٥هـ ، وقال حين نزل هذا المكان « يا أهل المصريين هذا المكان والله مكانكم ، شهرا بعد شهر ، وسنة بعد سنة ، حتى يهلك الله عدوكم ، هؤلاء الخوارج المظلمين عليكم » (٢٨) وهكذا أعلن الحجاج الحرب التي لا هوادة فيها ضد الأزارقة مهما طال الزمن وحشد لها كل ما يستطيع حشده من الرجال ، « فاشتدت ظهور المسلمين ، وساء ذلك الخوارج ، وقد كانوا رجوا أن يكون من الناس فرقة واختلاف » (٢٩) وكتب الحجاج الى المهلب يقره على حرب الأزارقة ، ويعلم ثقته فيه وفي قدرته على تولى هذه المهمة الخطيرة ، وحاجته اليه عن رغبة واقتناع ، وجاء في كتابه « .. فان بشر بن مروان وجهك الى الحرب التي للأزارقة وكان مستكرها لنفسه فيك ، وأنا أريدك لحاجتي اليك ، فأبشر وقر عينا ، واثبت على حرب القوم » (٣٠) . كما اعترف الحجاج للمهلب بشرطه الذي اشترطه على أهل البصرة قبل بداية حرب الأزارقة سنة ٦٥هـ بأن يكون له خراج ما غلب عليه من البلاد « فكانت الأموال تنتقل اليه من أرض فارس في البدر مكتوب عليها : هذا ما أطعم الله المهلب بن أبي صفرة مما غلب عليه من بلاد الله ، يحمله الى قومه من الأزد لا يعترض عليه معترض » (٣١) .

ونلاحظ في هذه المرحلة من القتال مع الأزارقة أن قيادة الجيوش التي كانت في رامهرمز لم تكن واحدة — رغم أوامر الحجاج للمهلب

(٢٨) نويرى ، ج ٢١ ، ص ١٥٢ .

(٢٩) طبري ، ج ٦ ، ص ٢١٠ ، ابن خلدون ، م ٣ ، ص ٩٥ .

(٣٠) المبرد ، ص ٢٦٦ .

(٣١) ابن أعثم ، م ٤ ، ص ١٤ .

واقتراره على حرب الأزارقة ، فكان أهل البصرة يقودهم المهلب ، وأهل الكوفة يقودهم عبد الرحمن بن مخنف . وفي البداية نجحت جيوش الحجاج في اجلاء الأزارقة عن رامهرمز « من غير قتال شديد » (٣٢) حسب رواية الطبري ، ويبدو أن هذه كانت سياسة الأزارقة عندما يشعرون بقوة جيوش الخلافة وخطورة المواجهة ، فترجعوا الى سابور ، ونزلوا مدينة كارزون (٣٣) لتنظيم صفوفهم وتبعهم المهلب وعبد الرحمن بن مخنف وكان ذلك في رمضان سنة ٧٥ هـ ، ودارت بين الجانبين معارك عنيفة قتل فيها أعداد كبيرة من الجانبين ، وقتل خلال ذلك عبد الرحمن بن مخنف وصمد المهلب برجاله في وجه الأزارقة (٣٤) .

ونتيجة لعدم توحيد القيادة العسكرية في هذه المعركة ، فقد اختلفت الروايات حول أسباب هزيمة جيش ابن مخنف وقتله على يد الأزارقة فأهل البصرة يذكرون رواية مفادها أن المهلب عندما واجه جيوش الأزارقة عند كارزون ، خندق على قواته وتحرز من عدوه وكانت هذه عادته في التعامل مع الأزارقة في المعارك السابقة التي سبق الاشارة اليها . وأشار المهلب على ابن مخنف أن يخندق هو الآخر ويتحرز على معسكره ، فرفض أصحاب ابن مخنف مشورة المهلب وكأنهم أنفوا أن يأخذوا أوامرهم منه أو يعملوا تحت قيادته ، وقالوا : « نحن خندقنا سيوفنا » (٣٥) فحذره المهلب من خطر أن يداهمه الأزارقة على غرة

(٣٢) طبري ، ج ٦ ، ص ٢١٠ .

(٣٣) كارزون مدينة بفارس بين البحر وشنيراز (راجع معجم البلدان

لياقوت) .

(٣٤) راجع التفاصيل ، نویری ، ج ٢١ ، ص ١٥١ - ١٥٢ .

(٣٥) الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٨٨ .

كان أهل المهلب يفخرون بانتمائهم الى الأزد ، وكانوا في المواقف فلا يستطيع الثبات لهم ، ولكن صمم أصحابه على رأيهم^(٣٦) فلما بادر الأزارقة بالهجوم كان هدفهم في البداية معسكر المهلب ، فوجدوه قد أخذ الحيطة ولم يستطيعوا اقتحام خندقه لمناعته ، فمالت الأزارقة الى معسكر ابن مخنف واشتبكوا معه في قتال عنيف ، فلما احتدم القتال « انهزم عنه أصحابه »^(٣٧) فحلت الهزيمة بابن مخنف فقتل وقتل معظم الذين ثبتوا معه في المعركة^(٣٨) .

ولكن أهل الكوفة — وهم جيش ابن مخنف — يذكرون رواية أخرى تشير الى أن المهلب قد اصطدم بالأزارقة من بداية الأمر ، ولم يستطيع الثبات لهم ، مما اضطره الى الاستتجاد بعبد الرحمن بن مخنف الذي أمده بالخييل والرجال ، فلما رأت الأزارقة ذلك ، أدركت أن معسكر ابن مخنف قد خف رجاله ، فجعلوا بازاء المهلب من يشغله ، وانصرفوا بمعظم قواتهم الى معسكر ابن مخنف « وحملت عليهم الخوارج فقاتلتهم قتالا شديدا ثم ان الناس انكشفوا عنه »^(٣٩) فقتل ابن مخنف وقتل معظم أصحابه .

ويبدو أن رواية أهل الكوفة كانت تبريرا لهزيمتهم في هذه المعركة وقتل قائدهم وأرادوا القاء اللوم في ذلك على المهلب بن أبي صفرة ، ففي كلا الروايتين — رواية أهل البصرة وأهل الكوفة — تؤكد المصادر أن أهل الكوفة انكشفوا عن ابن مخنف ولم يصمدوا معه في القتال . ويؤكد هذا الأمر ما سبق أن أشرنا اليه من تسارع أهل الكوفة الى

(٣٦) البرد ، ص ٢٦٧ .

(٣٧) طبري ، ج ٦ ، ص ٢١٢ .

(٣٨) نويري ، ج ٢١ ، ص ١٥٢ .

(٣٩) طبري ، ج ٦ ، ص ٢١٢ ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٩٨٩ .

الفرار والعودة الى مصرهم في أعقاب وفاة بشر بن مروان .

وكيفما كان الأمر ، فان الخليفة عبد الملك بن مروان كان يدرك حقيقة الموقف في ميدان المعركة ضد الأزارقة ، وأن اللائمة في هذه الهزيمة تقع على عاتق اهل الكوفة ، فلما وصله خبر مقتل عبد الرحمن ابن مخنف « نعى عبد الرحمن ، وذم أهل الكوفة » (٤٠) .

بعث الحجاج بعتاب بن ورقاء خلفا لابن مخنف لقيادة أهل الكوفة ، وأراد أن يتفادى ما حدث لابن مخنف عندما لم يستمع الى مشورة المهلب ، فكانت أوامر الحجاج الى عتاب واضحة ، فاذا دارت المعارك فعليه أن يستمع الى المهلب ويطيع ، فساءه ذلك ، ولكن لم يجد بدا من الاذعان والطاعة (٤١) ولعبت العصبية القبلية بعقول القادة ، فعتاب كان حاقدا على المهلب ويأنف من العمل تحت قيادته مما أثار الخلافات بين الرجلين وكاد أن يحدث بينهما اشتباك في مجلس المهلب ، ورفع المهلب القضيب ليضرب عتاب لولا أن حجز بينهما المغيرة بن المهلب (٤٢) . وأدرك الحجاج متأخرا خطر وجود قائدين متنافسين في مواجهة الخوارج ، واستغل فرصة شكوى عتاب من المهلب فأمر عتابا بالعودة الى الكوفة ، فقام المهلب باسناد قيادة ما تحت امره عتاب الى ابنه حبيب (٤٣) .

وهكذا توحدت قيادة الحرب ضد الأزارقة وأصبحت بيد آل المهلب

(٤٠) طبرى ، ج ٦ ، ص ٢١٣ ، الكامل ، نفسه .

(٤١) الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٩٠ ، نويرى ، ج ٢١ ، ص ١٥٣ .

(٤٢) الكامل ، نفسه .

(٤٣) طبرى ، ج ٦ ، ص ٢١٣ .

وتمكن المهلب في هذه المرحلة من الصراع أن يوجه ضربات عنيفة الى الأزارقة في فارس وكرمان واستمر المهلب يناجزهم ثمانية عشر شهرا دون حسم^(٤٤) ولكنه تمكن من تضيق مواردهم باستيلائه على معظم أقليم فارس وحجب ما كانوا يحصلون عليه من هذا الاقليم الغنى^(٤٥)، وخلال هذه الفترة كان الحجاج يتابع معارك المهلب وبنيه ضد الأزارقة، ويحثه على الاسراع في حسمها، وظن أنه يطيل أمد الحرب حتى يجبى أكبر قدر من الأموال، فأراد أن يجبى خراج فارس عن طريق عمال من قبله، ويحرم المهلب من هذا المورد الذي يعتمد عليه في تمويل عسكره، ومهما كان هدف الحجاج من هذا التصرف، فان المصادر توضح أن عين الخليفة عبد الملك كانت تراقب ما يجرى بين المهلب والحجاج وبدايات التنافس بين الرجلين، كما أدرك خطورة أن يحرم المهلب من أموال فارس، وتأثير هذا على صمود عسكره في مواجهة الأزارقة، فكتب عبد الملك الى الحجاج سنة ٧٧ هـ «أما بعد، فدع بيد المهلب خراج فارس، فانه لابد للجيش من قوة، ولصاحب الجيش من معونة»^(٤٦) ♦

ورغم استجابة الحجاج لأوامر الخليفة، الا أن مشاعر الحجاج بدأت تتغير نحو المهلب، وتحركت عوامل العصبية القبلية في نفسه، وكان يتمنى لو تولى أمر الخوارج رجل من القيسية، فيحوز المال والثروة واحترام الخليفة وتقديره ويوضح هذه المشاعر بجلاء، ما جاء في كتاب للحجاج الى المهلب بن أبي صفرة جاء فيه: «فانه بلغنى أنك

(٤٤) نویری، ج ٢١، ص ١٥٤.

(٤٥) طبری، ج ٦، ص ٣٠١.

(٤٦) طبری، نفسه.

أقبلت على جباية الخراج ، وتركت قتال العدو ، وانى وليتك وأنا أرى مكان « عبد الله بن حكيم المجاشعي »^(٤٧) « وحسان ابن حصين الحبطي »^(٤٨) واختسرتك وأنت من أهل عمان ، ثم رجل من الأزد ••^(٤٩) ورد المهلب على الحجاج بأنه يتحين القرص لتحقيق النصر النهائي على الأزارقة وأنه لن يتم له ذلك الا في ثلاثة أحوال : موت زعيم الأزارقة قطرى بن الفجاءة ، أو وقوع الفرقة والاختلاف فيما بينهم ، أو محاصرتهم حتى يقتلهم الجوع^(٥٠) ولكن الحجاج لم يقتنع بهذه المبررات التي ساقها المهلب وظل يطارده بكتبه ورسله لانهاء الحرب مع الأزارقة •

وفي رواية للطبرى أن الحجاج أرسل في سنة ٧٧ هـ البراء بن قبيصة حاملا كتابا للمهلب يحثه فيه على مجاهدة الأزارقة ، ويحذره من « العلل والأباطيل » ، وأراد المهلب أن يرى رسول الحجاج كيف تكون المعارك مع الأزارقة « فأخرج المهلب بنيه ، كل ابن في كتيبة ، وأخرج الناس على راياتهم •• وجاء البراء بن قبيصة فوقف على تل قريب حيث يراهم ، فأخذت الكتائب تحمل على الكتائب ، والرجال على الرجال ، فيقتتلون أشد قتال رآه الناس من صلاة الغداة الى

(٤٧) المجاشعي منسوب الى مجاشع بطن من تميم وعامتهم بالبصرة (راجع : محمد بن أبى عثمان الحازمي ، النسب ، ص ١١ ، القاهرة ١٩٧٣) •

(٤٨) الحبطي أو الحبطي نسبة الى حبطة بنت مالك بن عوف (راجع : محمد بن أحمد الذهبي ، المشتبه ، ج ١ ، ص ١٣٩ ، القاهرة ١٩٦٢) .
(٤٩) المبرد ، ص ٣٦٨ •
(٥٠) ابن أعثم ، م ٤ ، ص ١٤ •

انتصاف النهار ، ثم انصرفوا ، فجاء البراء بن قبيصة الى المهلب فقال له : لا والله ما رأيت كبنيك فرسانا قط ، ولا كفرسانك من العرب قط ، ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك قط فرجع المهلب بالناس ، حتى اذا كان عند العصر خرج اليهم وبنيه في كتائبهم ، فقاتلوه كقتالهم في أول مرة « (٥١) » . ونستنتج من هذا البيان العملي ليوم قتال ضد الأزارقة مدى ضراوة المعارك التي كان يخوضها آل المهلب ضدهم وقوة بأس عدوهم وصبرهم على القتال ، وعندما سأل المهلب مبعوث الحجاج عن تعليقه على ما شاهد قال : « رأيت قوما والله ما يعينك عليهم الا الله » (٥٢) فطلب المهلب من البراء أن ينقل على لسانه للحجاج « أن البلاء كل البلاء أن يكون الرأي لمن يملكه دون من يبصره » (٥٣) .

وقد شهدت هذه المرحلة أقوى المعارك بين آل المهلب من جهة وبين الأزارقة من جهة أخرى ، ومن تتبع سير هذه المعارك التي جاءت بتفاصيلها المصادر المختلفة يمكننا أن نلاحظ العبقرية العسكرية والشجاعة النادرة التي كان يتمتع بها المهلب وأسرته ورجاله الذين كانوا يقودون الفرق ، ويخوضون المعارك الجانبية تحت قيادته .

ظل المهلب يطارد الأزارقة ويطردهم من مدينة الى أخرى ومن موقع الى آخر مستعملا معهم أسلوب الهجوم المفاجيء أحيانا ، وتلقى الصدمة والدفاع أحيانا أخرى ، والتريث وعدم الاشتباك ثلاثة (٥٤) ،

(٥١) طبرى ، ج ٦ ، ص ٣٠٢ .

(٥٢) المبرد ، ص ٢٧١ .

(٥٣) الجاحظ ، البيان ، ج ١ ، ص ٢٥٣ .

(٥٤) زاجع تفاصيل المعارك : ابن أعثم ، ٣م ، ص ٢٣ وما بعدها ،

المبرد ، ص ٢٧٢ وما بعدها .

وكان المهلب ينصح أبناءه قائلاً : « لا تبدؤوهم بقتال حتى يبدؤوكم فيبيغوا عليكم . فانهم اذا بغوا نصرتهم عليهم » (٥٥) ، وكان ينهاهم عن مهادنتهم اذا ولوا الأدبار منهزمين وقد نهى ابنه المغيرة عن مطاردتهم وهم جرحى « فان الكلب اذا جرحته عقر » (٥٦) .

كان آل المهلب يفخرون بانتمائهم إلى الأزد ، وكانوا في المواقف الخطيرة التي تحتاج إلى تكاتف وتضحية يلجأون اليهم لتأكيدهم من ولائهم وحسن بلائهم ، فعندما تصدى عطية بن الأسود في فرسان الأزارقة في إحدى المعارك للمهلب ، أسند المهلب مهمة قتاله إلى ابنه يزيد وقال له : « يا بني هذا عطية بن الأسود قد أقبل في فرسان الأزارقة ، فأخرج إليه في أخوانك الذين تثق بهم من الأقدام على المكروه » . فما كان من يزيد إلا أن نادى « في فرسان الأزرد فاجتمعوا إليه من كل أوب » (٥٧) .

واستمرت المعارك في الفترة من سنة ٧٥هـ إلى سنة ٧٧هـ ما يقرب من ثمانية عشر شهرا دون هوادة بين المهلب والأزارقة حتى وقع الاختلاف بين الأزارقة (٥٨) .

في سنة ٧٧هـ لاحت إحدى الفرص التي كان يتربص بها المهلب لينهى صراعه الطويل مع الأزارقة ، فقد وقع الاختلاف بين صفوفهم

(٥٥) المبرد ، ص ٢٧٧ .

(٥٦) ابن اعثم ، م ٣ ، ص ٢١٣ .

(٥٧) ابن اعثم ، م ٤ ، ص ٣٠ .

(٥٨) نويرى ، ج ٢١ ، ص ١٥٥ .

وانقسموا على أنفسهم ، ولما بلغ المهلب ما حل بهم من الاختلاف قال
الأصحابه : « أبشروا فهذا الذى كنت أرجوه من هؤلاء الخوارج وقد أذن
الله فى هلاكهم وبوارهم » (٥٩) .

وتذكر الروايات التاريخية أن سبب الاختلاف أن عاملا لقطرى
ابن المفجاءة زعيم الأزارقة على كرمان يدعى المقعطر الضبى ، قتل رجلا
ذا بأس من الأزارقة ، فوثبت الأزارقة الى قطرى وطلبوا منه أن يمكنهم
من المقعطر ليقتلوه بصاحبهم ، فرفض ذلك ، ودافع عن المقعطر واعترف
بالخطأ ولكنه لم يوافق على قتله (٦٠) وصمم كل فريق على موقفه فوقع
الاختلاف بينهم ، فولى المعارضون عبد ربه الكبير وخلصوا قطريا ،
ويقال أن قطريا قد بايعه عدد من الأزارقة يقدره الطبرى « نحوا من
ربعمهم أو خمسهم » (٦١) وانضم الباقيون الى عبد ربه الكبير .

وبعض الروايات ترجع سبب الاختلاف بين الأزارقة الى مؤامرة
دبرها المهلب بن أبى صفرة ضدهم ، فيقال ان رجلا حدادا من
الأزارقة كان يصنع نصالا مسمومة فيرمى بها أصحاب المهلب ، فشكا
أصحابه منها ، فوعدهم بالتخلص من هذا الشر ، فوجه المهلب رجلا
من أصحابه ومعه كتاب أمره أن يلقيه فى عسكر قطرى فى غفلة منهم ،
ففعل ووقع الكتاب فى يد قطرى فاذا فيه : أما بعد فان نصالك وصلت ،
وقد أنفذت اليك ألف درهم فاقبضها وزدنا من هذه النصال . فأحضر

(٥٩) ابن أعمش ، م ٤ ، ص ٤١ .

(٦٠) نويرة ، ج ٢١ ، ص ١٥٥ .

(٦١) طبرى ، ج ٦ ، ص ٣٠٣ .

قطرى الصانع وواجهه بالكتاب والدرهم ، فأنكر ما جاء فيه ، فأمر قطرى بقتله ، فأنكر عليه عبد ربه الكبير وبعض أصحابه قتله فوقع الاختلاف بينهم (٦٢) .

ثم دس المهلب بين الأزارقة رجلا نصرانيا ، وأمره أن يسجد لقطرى أمام أصحابه ويقول له أنا سجدت لك ، ففعل النصراني ، فاحتج الأزارقة على قطرى بأن الرجل عبده من دون الله ، وقتلوا النصراني ، ولم ير قطرى مبررا لقتله فاختلفت الكلمة ووقع المشقاق (٦٣) .

ويبدو أن المهلب عندما علم بأمر الخلاف بين الأزارقة أراد تعميقه بما دبره من المؤامرات السابق ذكرها ، وكيفما كان الأمر فإن المهلب كان يرقب الموقف بين فرق الأزارقة المتنازعة بحذر شديد ، ولم يتسرع بالتدخل ضدهم رغم تنازعهم ، وعندما أرسل كتابا إلى الحجاج يخبره بما يعانيه الأزارقة من فرقة ونشوب الحرب بين قطرى وعبد ربه الكبير ، كان رد الحجاج بعيدا عما يشغل ذهن المهلب في ذلك الوقت . فجاء فيه : « فإذا أتاك كتابي هذا فناهضهم على حال اختلافهم وافتراقهم قبل أن يجتمعوا فتكون مؤونتهم عليك أشد » (٦٤) ولكن المهلب كان يدرك أن تدخله في هذا الوقت قد يكون سببا في جمع شمل الأزارقة مرة أخرى ، وجاء في رده على الحجاج ما يوضح سياسته في هذه المرحلة « لست أرى أن أقاتلهم ماداموا يقتل بعضهم بعضا ، وينقص بعضهم عدد بعض ، فإن تموا على ذلك فهو الذي نريد وفيه هلاكهم ،

(٦٢) راجع التفاصيل : المبرد ، ص ٢٧٧ ، نویری ، ج ٢١ ، ص ١٥٥ .

(٦٣) المبرد ، ص ٢٧٨ .

(٦٤) طبری ، ج ٦ ، ص ٣٠٣ .

وان اجتمعوا لم يجتمعوا الا وقد رقق بعضهم بعضا ، فأناهمضهم حينئذ ،
وهم أهون ما كانوا وأضعف شوكة » (٦٥) .

وانتظر المهلب حتى انتهت الاشتباكات بين الأزارقة وتفرقت
جموعهم ، فريق بزعامة قطرى بن الفجاءة وتقدر حشوده بحوالي
عشرة آلاف (٦٦) اتجه بهم قطرى الى مدينة جيرفت احدى مدن كرمان .
وفريق بزعامة عبد ربه الكبير وكان يقود سبعة آلاف ، وفريق ثالث
بقيادة عبد ربه الصغير فى أربعة آلاف ، وكان كل فريق منهم يرغب
فى حرب المهلب ليظهر أمام الناس صبره وجهاده وأنه أفضل من
غيره (٦٧) .

حاصر المهلب مدينة جيرفت وبها قطرى ورجاله حصارا شديدا
وساعات الأحوال داخل المدينة المحاصرة حتى اضطر قطرى الى الخروج
من الحصار ومواجهة مصيره فى صدام مع جيش المهلب ، ويبدو أن
عبد ربه الصغير قد ساء ما آل اليه حال قطرى فجاء لمساندته بأربعة
آلاف من الأزارقة ، فأسند المهلب الى ابنه يزيد مهمة التصدى له وابعاده
عن الاشتراك فى الحرب بجانب قطرى ، وتمكن يزيد من أن يفتك
بعبد ربه الصغير ويقتله فى معظم أصحابه وظفر بعسكرهم وحوى
ما فيه (٦٨) وفى نفس الوقت استولى المهلب على مدينة جيرفت (٦٩) بعد

(٦٥) نویری ، ج ٢١ ، ص ١٥٦ .

(٦٦) ابن أعمم ، م ٤ ، ص ٤٥ .

(٦٧) ابن أعمم ، نفسه ، ص ٤٢ .

(٦٨) تاريخ اليعقوبی ، ج ٢ ، ص ٢٧٥ .

(٦٩) المبرد ، ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

أن انسحب منها قطرى دون قتال هاربا من الصدام مع المهلب حتى وصل مدينة الرى ومعه عبدة بن هلال ومن تبعه من الأزارقة ، وعند الرى افترقوا فتوجه قطرى الى ناحية طبرستان^(٧٠) ومضى عبدة بن هلال فى نفر من أصحابه الى مدينة قومس^(٧١) .

أقام المهلب فى مدينة جيرفت وأرسل الى الحجاج بتطور المعارك مع الأزارقة وبأنه مقيم على حرب عبد ربه الكبير وطلب منه أن يوجه فى أثر قطرى رجلا جلدا فى جيش^(٧٢) للقضاء عليه .

وكانت المعركة الحاسمة فى هذا الصراع مع الأزارقة حول مدينة جيرفت . وقد حشد عبد ربه الكبير لهذه المعركة كل ما يستطيع حشده من الرجال وحمسهم على الانتقام من المهلب الذى استولى على جيرفت واحتوى على غنائم أصحابهم وبنى أعمامهم . وكعادة المهلب فى صراعه المطويل مع الأزارقة ، كان يعرف كيف يتعامل معهم بأسلوب القسائد المحنك الذى خبر عدوه وأدرك نواياه ، فما كاد يبلغه خبر قدوم الأزارقة الى جيرفت حتى أمر أصحابه بالرحيل عن المدينة ، وخرج منها كالمتهزم ، وأقبل عبد ربه فى الأزارقة وقد بلغه خروج المهلب فظن أنه قد انهزم بين يديه ودخل برجاله الى الكمين الذى أعده له المهلب وضرب الحصار على نفسه ، فما كاد عبد ربه يدخل جيرفت حتى عاد المهلب بكل حشوده فحصره داخلها ، ووضع فى نفس الموقف الذى

(٧٠) طبرى ، ج ٦ ، ص ٣٠٤ .

(٧١) طبرى ، ج ٦ ، ص ٢١١ ، وقومس كورة كبيرة واسعة ، بين

الرى ونيسابور (راجع : مرصد الاطلاع ، ج ٣ ، ص ١١٣٤) .

(٧٢) المبرد ، ص ٢٨٨ .

كان فيه قطري منذ قليل ، وأمر المهلب أصحابه بعدم الاشتباك معهم في قتال •• واشتد الحصار على الأزارقة حتى اضطروا الى الخروج (٧٣) وعبأ المهلب أصحابه في كتائب ، وجعل على كل كتيبة رجلا من أولاده ، وقال لهم : « انما أقاتل الله ، وأنتم تقاتلون الله وعن أبيكم ، وتذبون عن دين الله •• وليس أحد أولى بحربهم منكم فقاتلوا واصبروا •• واعلموا انكم لا تملكون رقاب الناس ، وانما تملكون طاعتهم » (٧٤) •

دارت معركة عنيفة حول جيرفت اشتد فيها القتل حتى عقرت الخيل وتكسر السلاح وقتل الفرسان ، وعندما أدرك عبد ربه النهاية نزل عن فرسه وكسر جفن سيفه وتبعه أصحابه ، وجمع المهلب أولاده وأبطال قومه وحملوا عليهم وعظم الخطب حتى قال المهلب : ما مر بي يوم مثل هذا (٧٥) وأسفرت المعركة عن هزيمة مدمرة للأزارقة قتل فيها عبد ربه الكبير وقتل معه ما يقرب من أربعة آلاف من أصحابه حتى سألت دماؤهم الى وادي جيرفت فاحمر ماء الوادي (٧٦) ولم ينج منهم الا القليل فولى بعضهم هاربين واستأمن بعضهم المهلب فأمنهم •

ودخل المهلب مدينة جيرفت بعد النصر فاستولى على ما كان فيها من أمتعة الأزارقة وأموالهم ونسائهم وأولادهم ، وسبوا لأنهم كانوا يسيبون المسلمين (٧٧) وبعد هذه المعركة الفاصلة ، تم مطاردة قطري بن

(٧٣) نويزى ، ج ٢١ ، ص ١٥٦ •

(٧٤) راجع التفاصيل : ابن أعمم ، م ٤ ، ص ٤٧ — ٤٨ •

(٧٥) نويزى ، ج ٢١ ، ص ١٥٧ •

(٧٦) ابن أعمم ، م ٤ ، ص ٥٠ •

(٧٧) طبرى ، ج ٦ ، ص ٣٠٤ •

الفجاءة حيث قتل في نفس السنة (٥٧٧هـ) في شعب من شعاب طبرستان،
كما قتل عبيدة بن هلال في قصر تحصن به بقومس^(٧٨) وانتهى بهذا
خطر الأزارقة على الدولة الأموية بعد صراع عنيف قاد معظم مراحلها
آل المهلب .

أرسل المهلب الى الحجاج مبشرا بالنصر على الأزارقة ، فلما دخل
البشير مجلس الحجاج ، سأله عما كان عليه حالهم في حرب الأزارقة،
وطلب منه أن يخبره عن آل المهلب ، فقال له : « المعيرة فارسهم وسيدهم،
وكفى بيزيد فارسا شجاعا ، وجوادهم وسخيتهم قبيصة ، ولا يستحي
الشجاع أن يفر من مدرك ، وعبد الملك سم ناقع ، وحبيب موت زعاف،
ومحمد ليث غاب ، وكفاك بالمفضل نجدة ، قال الحجاج : فأيهم كان
أنجد ؟ قال : كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفها »^(٧٩) .

فاستحسن الحجاج ما قاله الرجل في آل المهلب ، وكتب الى المهلب
يشكره على جهوده ، ويعتذر اليه عما بدر منه أثناء المعارك من
استبطائه في حرب الأزارقة^(٨٠) وأمره أن يولى كرمان من يثق به من
أبنائه ويقدم عليه في أسرع وقت في آل بيته وفرسانه ولا يتخلف منهم
أحد فلما قدم المهلب على الحجاج أظهر اكرامه وبره ، وقال : « يا أهل

(٧٨) راجع التفاصيل : طبرى ، ج ٦ ، ص ٣٠٩ وما بعدها ، نویری،

ج ٢١ ، ص ١٥٩ وما بعدها .

(٧٩) المبرد ، ص ٢٩٤ ، المسعودی ، مروج ، ص ١٨٥ — ١٨٦

(٨٠) ابن أئثم ، م ٤ ، ص ٥٦ .

العراق أنتم عبيد المهلب» (٨١) ، وطلب منه أن يعرض عليه فرسانه الذين خاضوا المعارك الطاحنة وأبلوا في قتال الأزارقة ، وأن يصف له بلاءهم ، وكان كتاب الحجاج يسجلون له ما يقوله المهلب عن رجاله . ثم أقام الحجاج مجلسا خاصا للاحتفال بهذه المناسبة ، وكان ينادى على القواد والفرسان حسب مراتبهم وكان في مقدمتهم بنو المهلب : المغيرة ويزيد ومدر ك وقبيصة وحبيب والمفضل وعبد الملك ومحمد . وقال المهلب للحجاج : انه والله لو تقدمهم أحد في البلاء لقدمته عليهم ، ولولا أن أظلمهم لأخرتهم . قال الحجاج : صدقت ، وما أنت بأعلم بهم مني ، وإن حضرت وغبت انهم لسيوف من سيوف الله (٨٢) . فأخذ الحجاج لا يذكر له المهلب رجلا من أصحابه ببلاء حسن الا صدقه بذلك ، فأكرمهم وأحسن العطاء لهم وزاد فيه ثم قال : هؤلاء أصحاب الفعال وأحق بالأموال ، هؤلاء أصحاب الثغور وغيظ الأعداء (٨٣) .

(٨١) نویری ، ج ٢١ ، ص ١٥٨ ، — وكانت البصرة يطلق عليها بصرة المهلب لأنه حمى المدينة من الخوارج ، وكان أهل الكوفة يقولون لأهل البصرة « يا موالى المهلب » لنفسين السبب ولسيطرة آل المهلب ومكانتهم في البصرة ومن شعر الحسن بن هانئ في البصرة :
الكل بصرى يرى انما العلى مكمة سحق لهن جرین
لأزد عمان بالمهلب ثروة اذا افتخر الاقوام ثم تليـن
(راجع : الهمداني ، مختصر كتاب البلدان ، ص ١٢٢ ، وفيات الاعيان ، ج ٥ ، ص ٣٥١) .

(٨٢) المبرد ، ص ٢٩٨ — ٢٩٩ .

(٨٣) الطبرى ، ج ٦ ، ص ٣١٩ ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٤٤٨ .

الفصل الرابع

ولاية المهلب على خراسان حتى وفاته (٨٢هـ)

كانت ولاية خراسان هي الجائزة التي حصل عليها المهلب بن أبي صفرة تقديرا لجهوده وبلائه في القضاء على الأزارقة ، ففي سنة ٧٨هـ عزل عبد الملك بن مروان ، أمية بن عبد الله بن خالد عن خراسان وسجستان وكان مستقلا في ولايته عن الحجاج ، وضمهما الى أعمال الحجاج^(١) فأُسند الحجاج ولاية خراسان الى المهلب ، ويبدو أن المهلب كان حريصا على البقاء في البصرة للراحة بعد العناء الذي بذله في قتال الأزارقة ، فبعث ابنه حبيبا نائبا عنه الى خراسان ، فوافق الحجاج وقام بوداع حبيب بنفسه ووصله بعشرة آلاف درهم ، وظل حبيب مقيما في خراسان مدة عشرة أشهر حتى لحق به المهلب في سنة ٧٩هـ^(٢) .

ويبدو من رواية للطبري أن الحجاج كان مازال يجهل في نفسه غيرة وحقدا على ما وصل اليه آل المهلب من الرفعة وعلو الشأن ، فرغم مظاهر الاحتفال والتكريم التي أقامها الحجاج لآل المهلب ورجاله ، الا أنه « أخذ المهلب بألف ألف درهم من خراج الأهواز ، وكان ولاها

(١) الكامل ، ج ٤ ، ص ٤٤٨ .

(٢) النويري ، ج ٢١ ، ص ٢٦٨ .

اياه خالد بن عبد الله فقال المهلب لابنه المغيرة : ان خالدا ولانى الأهواز وولاك اصطخر ، وقد أخذنى الحجاج بألف ألف درهم فنصف على ونصف عليك» (٣) . والعجيب فى الأمر أن هذا القائد العظيم رغم فتوحاته وانتصاراته وما حصل عليه من مغنم وما جباه من أموال ، لم يكن يملك مثل هذا المبلغ حتى يسدده للحجاج ، مما يؤكد ما كان يتسم به آل المهلب بوجه عام من سخاء واغداق الأموال على رجالهم ، واضطر المهلب للوفاء بما عليه الى الاقتراض وبلغ به الحال أن باعت امرأته « خيرة القشيرية » حليا لها ومتاعا للوفاء بما عليه (٤) .

ونلاحظ أن المهلب فى فترة ولايته على خراسان (٧٨ — ٨٢ هـ) لم يركن الى الدعة والراحة ، واستمر فى نشاطه العسكرى ، وظل مع بنيه يقاتلون فى هذه الجبهة قتالا مستمرا ضد أعداء الاسلام ، ويعملون لاختضاع البلاد لسيطرة الدولة الأموية « فخيّل له بسمرقند وأخرى ببخارى ، وأخرى بطخارستان » . وكلما فتسح فتحا أخرج من ذلك الخمس فوجه به الى الحجاج ، وقسم باقى الفىء فى أصحابه ، وفرح أهل خراسان بولاية المهلب عليهم فرحا شديدا « (٥) لما حازوه من شرف الجهاد فى سبيل الله ، وما حصلوا عليه من الغنائم » .

كانت حركة المهلب بن أبى صفرة للغزو والجهاد فى سنة ٨٠ هـ عندما تحرك برجاله شرقا ، وقطع نهر بلخ ، ونزل على كئس (وهى قرية من قرى جرحان) (٦) وهناك وفد عليه ابن عم ملك الختل (٧) الذى

(٣) الطبرى ، ج ٦ ، ص ٣٢٠ .

(٤) نفسه ص ٣٢١ .

(٥) ابن أعمم ، م ٤ ، ص ٥٨ .

(٦) النويرى ، ج ٢١ ، ص ٢٠١ .

(٧) الختل : كورة فيما وراء النهر (راجع معجم البلدان لياقوت) .

كان على خلاف مع الملك وحرص المهلّب على فتح هذه البلاد ، فوجه معه المهلّب ابنه يزيد ، وتم حصار الختل والاستيلاء عليها ، وانسحب يزيد عنها بعد أن صالح أهلها على فدية حملت اليه^(٨) كما وجه المهلّب ابنه حبيبا الى بخارى في جيش كبير يقدر بحوالى أربعين ألف رجل ، وأوقع الهزائم بأهل بخارى ، وأخضعهم ورجع حبيب الى أبيه في مدينة كش^(٩) وكان المهلّب قد اتخذها مقرا له لتحريك قواته في الفتوحات المختلفة ، وأقام المهلّب بكش يضبط الأمور ويجبى الخراج ولم يستجب الى الآراء المتهورة التى كان أصحابها يطمعون في الغزو من أجل المزيد من الأموال ، فعندما قيل له : لو تقدمت الى الصغد وما وراء ذلك ، قال : ليت حظى من هذه الغزوة سلامة هذه الجند وعودتهم الى مرو سالمين »^(١٠) .

وتظهر براعة المهلّب السياسية في احتفاظه بعلاقات قوية مع الخليفة الأموى فى دمشق ، والتعامل بحذر مع الحجاج الذى كان يضمّر فى نفسه الكثير ضد آل المهلّب لذلك كانت سياسة المهلّب فى خراسان تتسم بالحذر من العناصر القبلية المناوئة من عرب الشمال على وجه التحديد ، ورغم انتمائه الى عرب الجنوب فلم يترك لنفسه العنان فى الانسياق وراء التعصب القبلى ، بل كان يسعى الى اقامة توازن فى العلاقات بين القبائل حتى لا تتور فتنة تؤدى الى افشال مشاريعه الحربية ، وفى نفس الوقت كان على حذر من المضرة ولا يأمن جانبهم ، ويبدو

(٨) الكامل ، ج ٤ ، ص ٤٥٣ .

(٩) الفويرى ، نفسه .

(١٠) الطبرى ، ج ٦ ، ص ٣٢٦ .

هذا عندما أقبِل عليه جماعة من مضر وهو بكس ، فقبض عليهم وحبسهم ، ورغم أن المصادر لم تذكر سببا لهذا التصرف ، فمن المحتمل أنهم كانوا يمثلون خطرا على وحدة جيشه في ذلك الوقت وهو يواجه العدو في حروب متصلة ، فقد ثارت بعض المنازعات بين بطون من بنى تميم طلبا للثأر (١١) . وعندما زال الخطر ، وعاد المهلب الى مرو عاصمة خراسان ، لم يجد سببا لبقاء هؤلاء في حبسه فأطلق سراحهم (١٢) ، ويؤيد هذا الاحتمال ، أن الحجاج كتب الى المهلب بشأن هؤلاء المضرية : « ان كنت أصبت بحبسهم فقد أخطأت بإطلاقهم ، وان كنت أصبت بإطلاقهم فقد ظلمتهم اذ حبستهم ، فكتب المهلب : خفتهم فحبستهم ، فلما أمنت خليتهم » (١٣) .

ولعل عدم توتر العلاقات بين المهلب والحجاج بصورة سافرة ترجع الى أن المهلب بالاضافة الى حسن سياسته ، لم يكن في طبعه الغدر ونكث العهود ، في الوقت الذي عرف فيه عن الحجاج القسوة والعنف في علاقته مع الخاصة والعامة على السواء ، وحادثة ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث في سنة ٨١ هـ تلقى الضوء على بعض جوانب شخصية الرجلين : أعنى المهلب والحجاج .

فثورة ابن الأشعث في جوهرها تمرد من جانب قائدها ورجاله ضد قسوة الحجاج وصلفه وغروره ، ورغبة في الانتقام منه ، وبدأت بتدخل الحجاج في الحرب التي يقودها ابن الأشعث ضد رتبيل أحد ملوك

(١١) راجع التفاصيل : النويري ، ج ٢١ ، ص ٢٢٩ - ٢٣٢ .

(١٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ٣٢٦ .

(١٣) الكامل ، ج ٤ ، ص ٢٥٤ .

الترك والذي سبق له أن أوقع الهزائم المتكررة بجيوش المسلمين ، وكان رأى ابن الأشعث — بعد أن حقق بعض الانتصارات على رتيبيل واستولى على أجزاء من بلاده — عدم التوغل في بلاد الترك خوفا من الوقوع في الكمائن « حتى يعرفوا طرقها ويحبوا خراجها » (١٤) ولكن الحجاج اتبع مع ابن الأشعث نفس الطريقة التي سبق له أن نفذها مع المهلب في حربه ضد الأزارقة ، فطارد ابن الأشعث بسلسلة من الكتب العنيفة التي تنتهمه بالجبن وحب المودعة والرغبة في جباية الأموال ، وأمره بمواصلة القتال ضد الترك أو التخلي عن الامارة لأخيه اسحق (١٥) ، وكان رد فعل ابن الأشعث حاسما إذ أعلن الثورة على الحجاج والدولة الأموية واستجاب له الأجناد ومعظمهم من أهل البصرة والكوفة نكاية في الحجاج لبعضهم له وخوفهم من سطوته (١٦) .

وفي هذا الوقت حاول ابن الأشعث أن يستميل إليه المهلب بن أبي صفرة والى خراسان ، ولكن المهلب رفض الاستجابة للفتنة ، وكتب الى ابن الأشعث كتابا يوضح سياسته ومنهجه في التعامل مع السلطة الشرعية ، وجاء في كتابه « أما بعد ، فانك وضعت رجلك يا ابن محمد في غرر طويل الغى على أمة محمد ﷺ . الله الله فانظر لنفسك لا تهلكها ، ودماء المسلمين فلا تسفكها ، والجماعة فلا تفرقها ، والبيعة فلا تتكئها » (١٧) . وواضح من النص السابق التزام المهلب بالوفاء

(١٤) راجع تفاصيل ثورة ابن الأشعث وحروبه مع الترك : النويري ،

ج ٢١ ، ص ٢٣٣ وما بعدها .

(١٥) النويري ، نفسه ، ص ٢٣٥ .

(١٦) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ٢٨٧ .

(١٧) الطبري ، ج ٦ ، ص ٣٣٨ .

وعدم نكث العهود ، والبعد عن الفتنة وما تجر اليه من ويلات وسفك
دماء المسلمين ، ولا يكتفى المهلب بنصيح ابن الأشعث ، بل يرسل كتابا
الى الحجاج يحذره من خطر الفتنة الداهمة التي ستهب عليه ، وينصحه
أن يتخذ موقف الدفاع ضد ثورة ابن الأشعث ولا يخرج للقائه ،
وحلل له طبيعة أهل العراق في الحرب فقد خبرهم طويلا وقال في كتابه
للحجاج « ان لأهل العراق شره في أول مخرجهم ، وصباية الى أبنائهم
ونسائهم ، فليس شيء يردهم حتى يسقطوا الى أهليهم ويشموا
أولادهم ، ثم واقفهم عندها ، فان الله ناصرك عليهم ان شاء الله » (١٨) .

لم يأخذ الحجاج بنصيحة المهلب وتجهز للقاء جيش ابن الأشعث
الزاحف على العراق وخرج الحجاج من البصرة حتى وصل تستر (مدينة
بخوزستان) وهناك اصطدم مع ابن الأشعث في معركة عنيفة في يوم
الأضحى سنة ٨١ هـ ، فانهزم أصحاب الحجاج وقتل منهم جمع كثير ،
واضطر الحجاج الى الانسحاب بقلوله الى البصرة ، وابن الأشعث
يطارده (١٩) . وهنا أدرك الحجاج قيمة النصيحة التي أسداها له المهلب ،
فلما وصل البصرة ، طلب كتاب المهلب وأعاد قراءته وتفحص فحواه ثم
قال لمن حوله : « لله أبوه ، أى صاحب حرب هو . أشار علينا بالرأى
ولكننا لم نقبل » (٢٠) .

ونكب المهلب في رجب سنة ٨٢ هـ بوفاة ابنه المغيرة ، فحزن عليه
حزنا شديدا ، وكان المغيرة نائبا عن أبيه في مرو ، فلما بلغه خبر وفاته
وهو مقيم بكش أرسل ابنه يزيد الى مرو ليتولى مراسم دفن أخيه ،

(١٨) نفسه ، ص ٣٣٩ ، ابن خلدون ، م ٣ ، ص ١٠٧ .

(١٩) النويرى ، ج ٢١ ، ص ٣٣٦ .

(٢٠) الطبري ، ج ٦ ، ص ٣٤٠ .

وجعل يوصيه بما يفعل ودموعه تتحدر على لحيته (٢١) ، وبعد أن نظم الأوضاع في كثر ، تركها متوجها الى مرو وفي طريقه أصيب المهلب بمرض شعر معه بدنو أجله ، فجمع أولاده ، وأعلن استخلافه لابنه يزيد عليهم ، وأمرهم بعدم مخالفته ، فقال له ابنه الفضل : لو لم تقدمه لقدمناه (٢٢) ، وأحضر سهاما فحزمت ، وقال : اتكسرونها مجتمعة؟ قالوا : لا ، قال : افتكسرونها متفرقة؟ قالوا : نعم ، قال : فهكذا الجماعة .

وأوصى المهلب أبناءه قبيل وفاته وصية أوردتها معظم مصادر التاريخ ولأهمية هذه الوصية كأحد الوثائق التي تكشف عن شخصية زعيم آل المهلب ، والسياسة التي اعتنقها في حياته والتي يرغب من أبنائه أن يسلكوا سبيلها من بعده ، فقد أوردنا نص الطبري لهذه الوصية : « فأوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم ، فان صلة الرحم تنسى في الأجل ، وتثري المال ، وتكثر العدد وأنهاكم عن القطيعة ، فان القطيعة تعقب النار ، وتورث الذلة والقلة ، فتحابوا وتواصلوا ، وأجمعوا أمركم ولا تختلفوا ، .. وعليكم بالطاعة والجماعة ، وليكن فعالكم أفضل من قولكم ، .. واتقوا الجواب وزلة اللسان ، فان الرجل تزل قدمه فينتعش من زلته ، ويزل لسانه فيهلك . اعرفوا لمن يغشاكم حقه ، وآثروا الجود على البخل ، عليكم في الحرب بالأناة والمكيدة ، فانها

(٢١) نفسه ص ٣٥١ . ورثا الشعراء المغيرة ومنهم أبو أمامة زياد الأعجم الذي جاء في قصيدته :
تبكى المغيرة خيلنا ورماحنا والباقيات برنة وتصايح
كان المهلب بالمغيرة كالذي القى الدلاء الى قلب المائح
(راجع : وفيات ، ج ٥ ، ص ٣٥٤) .
(٢٢) الكامل ، ج ٤ ، ص ٤٧٥ .

أنفع في الحرب من الشجاعة • وعليكم بقراءة القرآن ، وتعليم السنن ،
وأدب الصالحين ، وإياكم والخفة وكثرة الكلام في مجالسكم ، وقد
استخلفت عليكم يزيد ، وجعلت حبيبا على الجند حتى يقدم بهم على
يزيد ، فلا تخالفوا يزيد » (٢٣) . وتوفي المهلب بمرور اليوم ، ودفن فيها ،
وصلى عليه ابنه حبيب وكانت وفاته في ذي الحجة سنة ٨٣هـ (٢٤) •

(٢٣) الطبري ، ج ٦ ، ص ٣٥٤ •

(٢٤) ابن أثير ، م ٤ ، ص ٨٩ ، فرثاه الشاعر نهار بن توسعة التميمي

بقصيدة مطلعها :

« ذهب الفزوة المقرب للفنى . ومثلت السدى والجود بعد المهلب

الفصل الخامس

آل المهلب تحت قيادة يزيد بن المهلب حتى وفاة

ال خليفة عمر بن عبد العزيز (١٠١هـ)

بعد وفاة المهلب ، كتب ابنه يزيد الى الحجاج يعلمه بوفاته ، فأقره الحجاج على خراسان مكان أبيه^(١) ، وكان المهلب قد قال لمن حضره من أولاده قبيل وفاته — كما ذكرنا — قد استخلفت عليكم يزيد فلا تخالفوه ، واعتقد أن هذا الاستخلاف لا يعنى استخلافنا على خراسان فقط ، فهذا يتوقف على موافقة الخليفة والحجاج ، بل هو استخلاف على آل المهلب ، فأصبح يزيد بهذا الاستخلاف كبير آل المهلب وشيخهم ، ولذلك لا أميل الى الأخذ برواية للطبرى — بدون سند على غير عادته — يقول فيها : « ويقال : انه قال عند موته ووصيته (يقصد المهلب) : لو كان الأمر الى لوليت سيد ولدى حبيبا »^(٢) . ولنا أن نتساءل : هل كان المهلب فى استخلافه لابنه يزيد مكرها ؟ واذا لم يكن الأمر اليه فى هذا الاختيار . فلمن كان اذن ؟ ، ولاشك أن هذه الرواية — ان صحت — تتناقض مع وصية المهلب لأبنائه عن أهمية الجماعة

(١) راجع : الطبرى ، ج ٦ ، ص ٣٥٥ .

(٢) طبرى ، نفسه .

وعدم الاختلاف وأن يطيعوا يزيد ، فما كان المهلب ييذر بذور الشقاق بين أبنائه قبيل وفاته بمثل هذه العبارة .

وفي سنة ٨٣ هـ كان الحجاج بن يوسف الثقفي مازال على حرب ابن الأشعث ، وكانت أهم المعارك التي خاضها في هذه السنة معركة « دير الجماجم » المشهورة بالقرب من الكوفة ، والتي انكسر فيها جيش ابن الأشعث وتشتت شمل أصحابه^(٣) ويهمننا من أمر هذه المعركة أن فريقا من جيش ابن الأشعث بعد أن انتهى بهم المطاف الى سجستان ، طلبوا أن يتركوا سجستان ويتوجهوا بجيوشهم الى خراسان وعليها يزيد بن المهلب ليستولوا عليها ويتقووا بها . ولكن ابن الأشعث حذرهم من هذه المغامرة ، وقال لهم : « على خراسان يزيد بن المهلب ، وهو شاب شجاع صارم وليس بتارك لكم سلطانه ، ولو دخلناها لوقعنا بين أهل خراسان وأهل الشام »^(٤) ، ولكن أصحابه لم يستجيبوا له . وكانوا يأملون أنهم اذا هاجموا خراسان سيجدون تأييدا من أهلها ، وأنها خير مستقر لهم بغيدا عن تهديد الحجاج والدولة الأموية^(٥) .

استجاب ابن الأشعث لرغبة أصحابه بعد الحاح ، وسار بهم في اتجاه خراسان وعندما وصلوا مدينة « هراة » حدث اضطراب في صفوف قواته أظهر اختلافها فيما بينها ، انسحب جزء من جيشه بقيادة عبيد الله ابن عبد الرحمن في ألفين ، مما أغضب ابن الأشعث ، فترك قيادة

راجع التفاصيل : النويري ، ج ٢١ ، ص ٢٣٩ وما بعدها .

(٤) الطبري ، ج ٦ ، ص ٣٧٠ .

(٥) النويري ، ج ٢١ ، ص ٢٥٠ .

أصحابه وإنسحب بخاصته من المعركة (٦) .

تجمع من بقى من جيش ابن الأشعث في هراة بقيادة عبد الرحمن ابن العباس بن ربيعة في حوالي عشرين ألفا ، وبلغ خبر هذا الحشد يزيد بن المهلب في خراسان ، وما فعلوه بنائبه على هراة « الرقاد بن عبيد » عندما أراد التصدي لهم فقتلوه . فأرسل يزيد تحذيرا الى عبد الرحمن جاء فيه : « قد كان لك في البلاد متسع ، ومن هو أكل منى أحدا وأهون شوكة ، فارتحل الى بلد ليس لى فيه سلطان ، فانى أكره قتالك ، وان أحببت أن أمدك بمال لسفرك أعنتك به » (٧) .

وتغل عبد الرحمن بن العباس ليزيد بأنه ما نزل هذه البلاد لحرب أو مقام ، ولكن للراحة ثم الرحيل ، وكان يزيد يراقب ما يجرى في هراة بحذر كعادة آل المهلب في حروبهم ، فبلغه أن عبد الرحمن أقبل على جباية ما تحت يده ، فأدرك يزيد أن من أراد أن يريح ثم يرحل لم يجب الخراج (٨) فتحرك يزيد برجاله في اتجاه هراة وولى على الحرب أخاه المفضل ، واستخلف على مرو عاصمة خراسان خاله جديع ابن يزيد ، وعندما وصل هراة ، بعث تحذيرا ثانيا الى عبد الرحمن بن

(٦) الطبرى ، ج ٦ ، ص ٣٧٠ . ويقال ان ابن الأشعث عند انسحابه عاد للإقامة مع رتبيل ملك الترك الذى كان قد توطدت بينهما الصداقة منذ رفض ابن الأشعث الدخول في حرب ضد رتبيل ، ووجه جيوشه لقتال الحجاج (راجع : الطبرى ، ج ٦ ، ص ٣٧٠ - ٣٧١ ، المسعودى ، التنبيه والاشراف ، ص ٢٨٧) .

(٧) النويرى ، ج ٢١ ، ص ٢٥١ .

(٨) الطبرى ، ج ٦ ، ص ٣٧١ .

العباس جاء فيه : انك قد أرحت وسمنت وجببت الخراج فلك ما جببت وزيادة ، فأخرج عنى فانى أكره قتالك^(٩) . ولكن عبد الرحمن بن العباس لم يستجب لنداء المسألة ، وكاتب جند يزيد يستميلهم ويدعوهم الى نفسه ، فأخبروا يزيد بذلك ، فعلم أنه لا فائدة من العتاب ، وأمر أخاه المفضل بالاشتباك ، ودارت معركة قصيرة انهزم فيها جيش عبد الرحمن وقر معظم أصحابه من ميدان المعركة ، فأمر يزيد بن المهلب بالكف عنهم وعدم مطاردتهم ، ووقع منهم عدد كبير في الأسر ، وكان من بين الأسرى محمد بن سعد بن أبي وقاص الذي قال ليزيد عندما مثل بين يديه : أسألك بدعوة أبي لأبيك ، فخلى يزيد سبيله^(١٠) .

ويروى أن حبيب بن المهلب حرض أخاه يزيد على عدم ارسال الأسرى في هذه المعركة من أهل اليمن ، لأن الحجاج سيضرب أعناقهم ، وقال له : بأى وجه تنظر الى اليمانية اذا فعلت ذلك ، ورغم أن يزيد كان يعلم خطورة التعرض للحجاج في مثل هذا الأمر ، الا أنه خضع لرأى حبيب وأنف أن يرد أسرى اليمانية الى الحجاج ، وأما المخزية فشدهم في الحديد ووجههم الى الحجاج^(١١) .

ويروى الطبرى أن الحجاج عندما جاءه الأسرى من عند يزيد بن المهلب ، حاكمهم في مجلسه ، واحدا بعد الآخر ، وكان بعد المحاكمة يأمر

(٩) النويرى ، ج ٢١ ، ص ٢٥٢ .

(١٠) وكان سعد بن وقاص عندما بلغه حسن بلاء المهلب في معارك خراسان في عهد معاوية قال : اللهم لا تره ذلا أبدا ، واكثر ماله وولده ، ويقال أن ما نال المهلب من خير كان بسبب هذه الدعوة . (راجع : المعارف ،

ص ٢٤٢ ، الانساب ، ص ١٢٨ — ١٢٩) .

(١١) النويرى ، ج ٢١ ، ص ٢٥٣ .

بضرب عنق الأسير » ثم أتى بعبد الله بن عامر ، فلما قدم بين يديه قال : لا رأيت عينك يا حجاج الجنة ان أفلت ابن المهلب بما صنع . قال : وما صنع ؟ قال :

لأنه كاس في اطلاق أسرته وقاد نحوك في أغلالها مضرا
وقى بقومك ورد الموت أسرته وكان قومك أدنى عنده خطرا
فأطرق الحجاج مليا ، ووقرت في قلبه ، قال : ما أنت وذاك . وأمر
بضرب عنقه ، ولم تزل في نفس الحجاج حتى عزل يزيد عن خراسان
وحبس « (١٢) » .

عزل يزيد بن المهلب عن خراسان سنة ٨٥هـ

بعد أن فرغ الحجاج من ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث سنة ٨٥هـ رتب للقضاء على يزيد بن المهلب وعزله عن خراسان ، وأصبح لا هم له الا يزيد وأهل بيته ، « وقد كان الحجاج أذل أهل العراق كلهم الا يزيد وأهل بيته ومن معهم من أهل المصريين بخراسان ، ولم يكن يتخوف بعد عبد الرحمن بن محمد بالعراق غير يزيد بن المهلب » (١٣) .
ويبدو أن الحجاج كان يرى في يزيد بن المهلب ، أكبر منافس له لدى الخلافة الأموية في دمشق ، وأنه يمكنه أن يحل مكانه ويتولى ما تحت يده من أعمال ، وحسب رواية ابن خلكان أن « الحجاج يكره يزيد لما يرى فيه من النجابة فيخشى منه أن يترتب مكانه ، فكان يقصده بالمكره كل وقت كي لا يثب عليه » (١٤) . ولما كان أهم ما يشغل بال

(١٢) الطبرى ، ج ٦ ، ص ٣٨٠ ، قارن : النويرى ، ج ٢١ ، ص ٢٥٤ .

(١٣) الطبرى ، ج ٦ ، ص ٣٩٧ .

(١٤) وفيات ، ج ٦ ، ص ٢٧٨ .

الحجاج في ذلك الوقت هو يزيد بن المهلب ، فكان الحجاج كثيرا ما يسأل
المنجمين عن مكانه ، فيقولون رجل اسمه يزيد ، فلا يرى من
هو أهل لذلك سوى يزيد بن المهلب^(١٥) .

ورغم ما كان يتمتع به الحجاج من مكانة لدى الخليفة عبد الملك بن
مروان الذي أطلق يده في شئون العراق والمشرق ، إلا أنه كان يشعر
بأن يزيد بن المهلب يحظى باحترام وتقدير البلاط الأموي في دمشق ،
وأراد الحجاج أن يختبر مكانته لدى عبد الملك فطلب منه أن يعفيه مما
تحت يده من ولايات ، فأدرك عبد الملك هدفه ، ولم يجبه الى طلبه^(١٦) .
وتذكر الروايات التاريخية أن الحجاج كان يبحث عن سبب لاقناع
عبد الملك بن مروان بعزل يزيد عن خراسان ، فأكثر من الكتابة الى
عبد الملك يذم يزيد وآل المهلب ويتهمهم بأنهم زبيرية^(١٧) ، ومع علم
عبد الملك بأن هذه تهمة لا قيمة لها الآن بعدما حققه آل المهلب من
انتصارات ضد أعداء الدولة الأموية ، إلا أن الحجاج دفع
الخليفة الى أن يكتب اليه : « قد أكثر في يزيد وآل المهلب ، فسم لي
رجلا يصلح لخراسان ، فسمي له مجاعة بن سعد السعدي ، فكتب اليه
عبد الملك : ان رأيك الذي دعاك الى استفساد آل المهلب ، هو الذي
دعاك الى اختيار مجاعة ، فانظر لي رجلا حازما ماضيا لأمرك ، فسمي
له قتيبة بن مسلم ، فكتب اليه : وله »^(١٨) .

(١٥) نفسه ، ص ٢٨٨ — ٢٨٩ ، الثوري ، ج ٢١ ، ص ٢٦٤ .

(١٦) وفيات ، ج ٦ ، ص ٢٨٩ .

(١٧) الطبري ، ج ٦ ، ص ٣٩٥ .

(١٨) وفيات ، ج ٦ ، ص ٢٨٩ .

ونستنتج مما سبق أن عبد الملك كان يدرك حقيقة مشاعر الحجاج وحقده على يزيد وآل المهلب ، وأنه كان يرمى الى « استفساد آل المهلب » ورغم ذلك فقد استجاب الخليفة لطلب الحجاج وعزل يزيد عن خراسان بقتيبة بن مسلم في ربيع الآخر سنة ٨٥ هـ ، وكان هذا في اعتقادي منعاً لاحتمالات الفتنة والصدام بين يزيد والحجاج مما يندر بسوء العاقبة ، وكان الحجاج حريصاً في نفس الوقت أن يتم عزل يزيد عن خراسان وقدمه الى العراق بطريقة لا تثير مشاعره ، ولا تدفعه الى الثورة والتمرد ، فلم يكتب الحجاج اليه بالعزل بل كتب له باستخلاف أخيه الفضل وأن يقبل عليه بالعراق (١٩) .

وكان يزيد بن المهلب على علم بما يدبره له الحجاج ، ورغم نصيحة مستشاريه له بأن يترث في الخروج الى العراق على أمل أن عبد الملك يعدل عن عزله ، إلا أن يزيد كان محافظاً على التقاليد التي بثها فيه والده المهلب ، وقال لمن حوله : « انا أهل بيت بورك لنا في الطاعة ، وأنا أكره المعصية والخلاف » (٢٠) .

وهناك رواية تشير الى أن يزيد في أواخر أيامه في خراسان تغير على بنى عمه وغيرهم من أجناد خراسان ، فجعل يبغضهم ولا ينفذ فيهم وصية أبيه حتى أبغضه أهل خراسان وكتبوا الحجاج (٢١) ، وأنا لا أميل الى هذه الرواية لتبرير عزل يزيد ، فالحجاج ما كان يشغله علاقة يزيد بأهل خراسان ورأيهم فيه ، بقدر ما كان يشغله أمور أخرى

(١٩) الطبري ، نفسه .

(٢٠) نفسه .

(٢١) ابن أئثم ، م ٤ ، ص ١٤٥ وما بعدها .

سبق ايضاحها ، ومما يدحض هذه الرواية ، ما ترويه معظم المصادر أنه عندما خرج يزيد من خراسان الى العراق صادف ترحيبا كبيرا في كل مكان « فلم يمر ببلد الا فرشوا له الزياحين » (٢٢) .

حبس الحجاج يزيد بن المهلب ومعظم أفراد أسرته وأخذهم بنسوة العذاب وأغرمهم ستة ملايين درهم (٢٣) ، وظل يزيد في سجن الحجاج حتى سنة ٥٩٠ هـ حيث تمكن يزيد ومن معه من أخوته من الهرب من قبضة الحجاج . وتفاصيل ذلك أن الحجاج كان قد خرج لحرب الأكراد الذين غلبوا على فارس ، وأخرج معه يزيد ابن المهلب وأخوته ، فجعلهم في عسكره ، وجعل عليهم مثل الخندق ووضع عليهم حرسا من أهل الشام (٢٤) ، ووضح من هذا التصرف من جانب الحجاج ، أنه كان يدرك خطر يزيد وآل المهلب رغم وجودهم في قبضته ، فكان يخشى هربهم ولم يأمن أن يتركهم ، ويخرج للغزو مما قد يعطى بعض العناصر المؤيدة لآل المهلب من التدخل لاطلاق سراحهم .

وكان يزيد رغم وجوده في الحبس على اتصال بأسرته في البصرة ، فبعث الى أخيه مروان بن المهلب يخبره بعزمه على الهرب ، ويطلب منه أن يعد خيولا قوية تحسبا لوقت قد يستطيع فيه الافلات من قبضة الحجاج (٢٥) ، ويفهم من الروايات التي بين أيدينا أن الحجاج في هذه الفترة كان قد كف عن تعذيبهم ، واكتفى بأن يستصفي أملاكهم ويخرج منهم ما يستطيع اخراجه من أموال ، تسديدا لما أخذهم به ،

(٢٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ٣٩٦ ، النويري ، ج ٢١ ، ص ٢٦٥ .

(٢٣) وفيات ، ج ٦ ، ص ٢٨٨ — ٢٨٩ .

(٢٤) طبري ، ج ٦ ، ص ٤٨٨ ، نويري ، ج ٢١ ، ص ٣١٦ .

(٢٥) ابن أعمم ، م ٤ ، ص ١٥٥ .

وكان قد غرمهم ستة ملايين درهم — كما ذكرنا — ويبدو أن يزيد كان يعامل معاملة خاصة آنذاك ، وكان ينفق عن سعة وهو في الحبس « وكان له طباطخ وموائد منصوبة حتى استمال قلوب الحراس » (٢٦)، ولذلك كان يمكن ليزيد أن يدبر خدعة يهرب بها من حبسه ، وأمر يزيد أن يصنع طعام كثير للحرس وأن يقدم لهم الشراب ، واستغل انشغالهم فتكرر في ثياب طباطخه ، ووضع لحية بيضاء وتسلل من بين الحراس ليلا وتبعه أخواه المفضل وعبد الملك (٢٧) ، ومن المحتمل أن يزيد قد دبر هذا الأمر بالاتفاق مع بعض الحراس الذين غرمهم بكرمه ، وأعطى السجان ألف درهم لتسهيل مهمة هربه (٢٨) .

لما وصل الخبر الى الحجاج بهرب يزيد وأخته ظن أنهم سيتجهون الى خراسان ويجمعون أنصارهم ، ويثيرون فتنة ضده ، فأرسل الى واليها قتيبة بن مسلم يأمره بالحذر والاحتياط ، فكان الحجاج يخشى أن يحدث له من يزيد مثل ما فعل ابن الأشعث (٢٩) ولكن يزيد ومن معه من آل المهلب ، كانوا يفكرون في اتجاه آخر ، حيث أخذوا طريقهم الى فلسطين ونزلوا على أحد أفراد قبيلتهم وهو يزيد بن عبد الرحمن الأزدي الذي توسط ليزيد بن المهلب لدى سليمان بن عبد الملك بن مروان وكان مقيما في فلسطين في ذلك الوقت ، فأمنهم سليمان ، وكان لابد أن يحصل لهم على الأمان من أخيه الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٨٩ هـ) فكتب اليه بذلك ، وطلب منه الخليفة أن يمثل يزيد

(٢٦) التويرى ، ج ٢١ ، ص ٣١٧ .

(٢٧) طبرى ، ج ٦ ، ص ٤٤٨ — ٤٤٩ .

(٢٨) ابن أعثم ، م ٤ ، ص ١٥٤ .

(٢٩) طبرى ، ج ٦ ، ص ٤٤٩ .

كان من المتوقع أن يحظى آل المهلب وعلى رأسهم يزيد بمكانة مرموقة ونفوذ قوى في ظل حكم الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ) الذي ما كاد يقولى الخلافة حتى دعا يزيد بن المهلب ، فخلع عليه وأكرمه ، وعزم على أن يوليه العراقيين البصرة والكوفة^(٣٥) ، وفي نفس الوقت فان أعداء آل المهلب وخاصة هؤلاء الذين كانوا من أنصار الحجاج (توفي ٩٥ هـ) ، وشاركوا في بعض ما أصاب آل المهلب على يديه ، أصبحوا يتوجسون من العهد الجديد ، وتوقعوا أن يتم تصفية الحسابات القديمة، وأن يتعرضوا للانتقام ، فيذكر الرواة ، أن الخلافة عندما آلت الى سليمان بن عبد الملك ، خشي قتيبة بن مسلم أن يعيد سليمان يزيد بن المهلب على خراسان ويعزله عنها بما يعنيه هذا من تعرضه وأنصاره للانتقام يزيد ، فكتب قتيبة الى سليمان ثلاثة كتب أرسلها مع رسول له : الكتاب الأول يهنئه فيه بالخلافة ، ويذكر حسن بلاءه وطاعته لعبد الملك والوليد ، وأنه له عليه مثل هذا ان لم يعزله عن خراسان . فقتيبة في كتابه الأول للخليفة يربط بين ولائه له وبين بقاءه واليا على خراسان محتما فيها مما يتوقعه من أخطار .

والكتاب الثاني يذكر فيه الخليفة بفتوحه وجهاده ومكانته وعظم قدره ، « ويذم آل المهلب ويحلف بالله لئن استعمل يزيد على خراسان ليخلعنه » أما الكتاب الثالث فكان فيه خلع للخليفة وإعلان التمرد^(٣٦) .

وبعث قتيبة الكتب مع أحد خاصته ، وأوصاه أن يدفع الكتاب الأول الى الخليفة ، فان كان يزيد بن المهلب حاضرا مجلسه فقرأه ثم

(٣٥) ابن اعثم ، م ٤ ، ص ١٨٧ .

(٣٦) النويري ، ج ٢١ ، ص ٣٣٩ .

وأخوته أولا بين يديه قبل الأمان ، ولما خاف عليهم سليمان من بطش
ال خليفة أخبره أنه سيحضر بهم بنفسه ، ولكن الوليد أقسم أنه لن
يعطيهم الأمان الا اذا حضروا بدونه ومقيدين (٣٠) .

ويظهر أن سليمان بن عبد الملك لم ينس بلاء آل المهلب وشهرتهم
التي ذاعت في الآفاق وجهادهم وولاءهم للدولة الأموية ، لذلك أرسل
مع يزيد وأخوته ابنه أيوب ، وطلب منه أن يدخل الى الوليد وهو مقيد
في قيد واحد مع يزيد بن المهلب ، ووجه سليمان كتابا الى أخيه يبرر
فيه أسباب اجارته ليزيد جاء فيه : « انما أجرت يزيد بن المهلب لأنه
وأباه وأخوته من صنائعنا قديما وحديثا ، فلم أجر الا سامعا مطيعا
حسن البلاء والأثر في الاسلام هو وأبوه وأهل بيته » (٣١) وتعهد
سليمان بأن يرد عن يزيد كل ما يطلب منه من أموال (٣٢) . فأمن
الوليد بن عبد الملك يزيد وآل المهلب ، وكتب الى الحجاج بأن يكف يده
عنهم ، فاستجاب الحجاج لأوامر الخليفة ، وكان أبو عيينه بن المهلب
عند الحجاج وقد أغرمه مالا فكف عنه ، وأطلق سراح حبيب بن المهلب
وكان يعذب بالبصرة (٣٣) . وأقام يزيد بن المهلب عند سليمان بن عبد الملك
وكانت الصداقة بين الرجلين تزداد قوة مع الوقت وكان سليمان يحسن
استقباله ، ويقدم له الهدايا القيمة ويقبلها منه ، ولم يتمكن الوشاة
من افساد هذه العلاقة القوية بينهما (٣٤) وظل الحال على ذلك حتى وفاة
الوليد بن عبد الملك وتولى سليمان الخلافة سنة ٥٩٦ هـ .

(٣٠) طبرى ، ج ٦ ، ص ٤٥١ .

(٣١) ابن أعمم ، ج ٤ ، ص ١٥٨ .

(٣٢) طبرى ، ج ٦ ، ص ٤٥٢ .

(٣٣) وفيات ، ج ٦ ، ص ٢٩٤ .

(٣٤) راجع التفاصيل ، الطبرى ، ج ٦ ، ص ٤٥٢ — ٤٥٣ .

ألقاه اليه فادفع اليه بالكتاب الثاني ، فإن قرأه ودفعه الي يزييد فادفع اليه الثالث . وان قرأ الأول ولم يدفعه الي يزييد فاحبس الكتابين عنه ، وقد حدث ما توقعه قتيبة أولا ، فكلما أعطاه مبعوثه كتابا دفعه الخليفة الي يزييد حتى أعطاه الكتاب الثالث فقرأ سليمان : « لئن لم تقرنى على ما كنت عليه وتؤمننى لأخلعنك ولأملأنها عليك خيلا ورجلا » (٣٧) .

ولم ينتظر قتيبة بن مسلم رد الخليفة على كتبه ، واستشار أخوته فأشاروا عليه بخلع سليمان بن عبد الملك ، فلما فعل ذلك ودعا القبائل التى فى خراسان الى مساندته فى خلع سليمان لم يستجيبوا له ، فوقف قتيبة فيهم خطيبا فأساء اليهم وسبهم ، فغضبت القبائل واجتمعوا على خلع قتيبة والتصدى له « وكان أول من تكلم فى ذلك الأزدي » (٣٨) وكان طبيعيا أن ينقم الأزدي على قتيبة لموقفه من آل المهلب وعدائه لهم (٣٩) وانتهى الأمر بثورة القبائل فى خراسان على قتيبة ، وقتل هو ومعظم أفراد أسرته وبعث برأسه الي سليمان بن عبد الملك (٤٠) .

وكان سليمان بن عبد الملك بعد توليه الخلافة مباشرة قد أسند ولاية العراق الي يزييد بن المهلب ، وأمره أن ييسط العذاب على آل أبى عقيل وهم أهل الحجاج ، فأسند يزييد مهمة الانتقام منهم ومصادرة أملاكهم الي أخيه عبد الملك (٤١) ، ورغم أن سليمان قد أطلق يد يزييد

(٣٧) راجع التفاصيل : الطبرى ، ج ٦ ، ص ٥٠٧ — ٥١١ .

(٣٨) النويرى ، ج ٢١ ، ص ٣٤٠ .

(٣٩) تاريخ اليعقوبى ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ .

(٤٠) راجع التفاصيل : تاريخ اليعقوبى ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ — ٢٩٦ ،

النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢١ ، ص ٣٤٠ — ٣٤٢ .

(٤١) النويرى ، ج ٢١ ، ص ٣٤٣ .

ابن المهلب في أهل الحجاج وخواصه ، إلا أن يزيد لم يكن يحصل طباع الحجاج ولا أخلاقه ، وكان أقرب إلى العفو منه إلى الانتقام والتشفي ويبدو هذا واضحاً في موقفه من يزيد بن أبي مسلم خليفة الحجاج وأحد خواصه ، وكان سليمان قد قبض عليه ، وقال ليزيد بن المهلب « خذك إليك فعذبه بألوان العذاب ، حتى تستخرج منه الأموال » فقال : يا أمير المؤمنين أنا أعلم به ، لا والله ما عنده مال ، ولا كان ممن يحوى المال . وكان يزيد بن المهلب يعرف له جميل فعله به ، فولاه سليمان الصائفة » (٤٢) .

وفي سنة ٩٧ هـ استعمل سليمان بن عبد الملك ، يزيد بن المهلب على خراسان مضافة إلى العراق ، فولى يزيد أخاه زيادا على عمان (٤٣) . وكان سبب ذلك أن سليمان لما ولي يزيد العراق فوض إليه الحرب والخراج والصلاة بها ، أي أصبحت ولاية عامة ليزيد ، فنظر يزيد لأحوال العراق وما آلت إليه بعد أن خربها الحجاج ، وضيق على أهلها ، واستنزف أموالهم ، ورأى أنه إن تشدد في جمع الخراج وعذب الناس لجمعه منهم صار عندهم مثل الحجاج ، لذلك احتال يزيد لدى الخليفة حتى يسند إليه ولاية خراسان وكأن الأمر قد جاء عفواً ودون تدبير أو رغبة من يزيد (٤٤) .

ويبدو من رواية لابن الأثير أن يزيد انشغل عن الخراج ، فأُسندت مهمة الخراج إلى صالح بن عبد الرحمن ، فضيق صالح على يزيد في

(٤٢) تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ .

(٤٣) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٠٦ ، الأنساب ، ج ٢ ، ص ١٤٨ .

(٤٤) راجع التفاصيل : الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٣ ، النويري ، ج ٢١ ،

ص ٣٤٤ وما بعدها .

الأموال حتى ضجر من البقاء في العراق وكان يزيد مشهورا بالكرم الى حد الاسراف فقد اتخذ ألف خوان يطعم الناس عليها فمنعها صالح . . واشترى يزيد متاعا وكتب صكا بثمانه الى صالح فلم يقبله ، وادعى بأن الخراج لا يقوم بما يريد يزيد (٤٥) .

واعتقد أن الفرصة في العراق كانت ضيقة أمام طموحات يزيد وآل المهلب ، فمجال الغزو والفتوحات ليست متاحة ليزيد في العراق ، ولعل هذا هو ما دفع يزيد الى السعي لتولى خراسان تلك الولاية التي خبرها آل المهلب طويلا في صراعهم مع الأزارقة وفي كفاحهم في سبيل الجهاد ونشر الاسلام ، فالغزو هو الطريق الذي اعتاده آل المهلب للحصول على الشهرة والمغانم ، فعن طريق الغزو يمكن تحقيق المكانة العالية المرموقة ، والثروات الطائلة التي تخضع الرقاب وتجمع الأنصار .

خرج يزيد بن المهلب الى خراسان سنة ٩٧هـ وكان قد سبقه اليها ابنه مخلد واستخلف الولاية على مدن العراق ، وجعل أخاه مروان على حوائجه وشئونه بالبصرة (٤٦) لما للبصرة من مكانة خاصة لدى آل المهلب .

وسعى يزيد بن المهلب بعد توليه خراسان في تحقيق ما كان يصبوا اليه من أهداف ، فبعد أن قبض على زمام الأمور في ولايته ، قضى على الثورات في جرجان وطبرستان ، وحارب الترك والديلم ، واستعان بآل المهلب في الادارة والقيادة ، فولى ابنه مخلدا سمرقند ، وولى مدرك بن المهلب بلخ ومحمد بن المهلب مرو وعظم أمر يزيد

(٤٥) الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٣ — ٢٤ .

(٤٦) النويري ، ج ٢١ ، ص ٣٤٦ .

بخراسان (٤٧) •

تمكن يزيد بن المهلب خلال فترة ولايته على خراسان لسليمان بن عبد الملك من القيام بسلسلة من الفتوحات والغزوات الناجحة ، وكتب الى سليمان بأمر هذه الفتوحات وأن الله قد فتح لأمر المؤمنين جرجان وطبرستان ومناطق قد استعصت على المسلمين من قبل (٤٨) « وقد صار في يدي ما أفاء الله على المسلمين بعد أن صار الى كل ذي حق حقه من الفىء والغنيمة عشرون ألف ألف • فقال له كاتبه : « لا تفعل أيها الأمير إن هذا يبقى عليك مخلدا بكتابك في دواوينهم ، فإن ولى بعده وال فتحامل عليك لم يرض منك الا بأضعافه ، وإن عدل عليك أخذك بما في كتابك » (٤٩) ونصحه أن يكتب الى سليمان بن عبد الملك بالفتح وعندما يلتقى به يخبره بشأن الأموال حتى لا تؤخذ عليه ، فأبى يزيد وأمضى الكتاب وتصادف أن مات سليمان بن عبد الملك وتولى عمر بن عبد العزيز عندما وصل كتاب يزيد (٥٠) •

كتب عمر بن عبد العزيز الى يزيد بن المهلب أن يستخلف على عمله ويقبل اليه ، فاستخلف يزيد مخلدا ابنه وقدم من خراسان وفي الطريق قبض على يزيد وقيد وأرسل به الى عمر بن عبد العزيز الذي حبسه بحصن حلب (٥١) وطالبه بالأموال التي كتب بها الى سليمان ،

-
- (٤٧) راجع تفاصيل غزوات آل المهلب في هذه الفترة : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٤١٢ وما بعدها ، تاريخ اليعقوبى ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ .
 (٤٨) راجع : البلاذرى ، ص ٤١٢ - ٤١٥ .
 (٤٩) الحميرى ، الروض ، ص ١٦٠ - ١٦١ .
 (٥٠) النويرى ، ج ٢١ ، ص ٣٥٢ .
 (٥١) الكامل ، ج ٥ ، ص ٤٨ - ٤٩ ، النويرى ، ج ٢١ ، ص ٣٦٣ .

فأنكر يزيد هذه الأموال وبرر ذلك بقوله : « كنت من سليمان بالمكان الذى رأيت ، وانما كتبت الى سليمان لأسمع الناس به ، وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذنى به »^(٥٢) ، وطلب يزيد من عبد العزيز أن يطلق سراحه ليجمع له الأموال التى يطالبه بها فرفض عمر ذلك وقال :
أأخذها من الناس مرة أخرى^(٥٣) .

ويبدو أن عمر بن عبد العزيز كان غاضبا على يزيد بن المهلب قبل توليه الخلافة ، ولم يحن راضيا عن العلاقة الوثيقة التى كانت تربطه بسليمان بن عبد الملك ، والتى اعطته الفرصة ليتصرف بختيار من مظاهر الغرور وخاصة بعض الأعمال التى عرفت عن يزيد والتى تتسم بالاسراف فى انهبات والعطايا التى كان يعتبرها عمر من أموال الدولة وليست ملكا ليزيد ، وقد صرح عمر بن عبد العزيز بموقفه من يزيد لأحد خلصائه فقال : « العجب للأمير المؤمنين (سليمان) ، استعمل رجلا على أفضل شغور المسلمين . فقد بلغنى عن يقدم من التجار من ذلك الوجه أنه يعطى الجارية من جواريه مثل سهم ألف رجل . أما والله ، ما الله أراد بولايته — فعرفت أنه يعنى يزيد — فقلت : يشكر بلاؤهم أيام الأزارقة »^(٥٤) . وكان عمر يعلن عن كراهيته لآل المهلب ويقول :
« هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم »^(٥٥) .

والواقع أن يزيد قد أظهر خلال حكم سليمان بن عبد الملك كثيرا من مظاهر التكبر والاعتداد بالنفس الذى وصل الى أن يتحدى أفراد

(٥٢) الكامل ، نفسه .

(٥٣) تاريخ اليعقوبى ، ج ٢ ، ص ٣٠٢ .

(٥٤) راجع : الطبرى ، ج ٦ ، ص ٥٢٨ — ٥٢٩ .

(٥٥) الكامل ، ج ٥ ، ص ٤٩ .

الأسيرة الحاكمة ويواجههم بأعنف العبارات ، ومن الأمثلة على هذا ما رواه ابن قتيبة من أن سليمان بن عبد الملك سأل في مجلسه يوما يزيد بن المهلب : فيمن العز بالبصرة؟ فقال : فينا وفي حلفائنا من ربيعة، وكان عمر بن عبد العزيز حاضرا فاستاء من هذا (٥٦) ، كما يروى أن يزيد بن عبد الملك أبدى ملاحظة على عطر كان يتعطر به يزيد بن المهلب أغضبته ، فوجه اليه ابن المهلب عبارات عنيفة جاء فيها : الى يقال مثل هذا الكلام وأنا ابن المهلب بن أبي صفرة ، والله لئن وليت الخلافة وأنا حي لأضربن وجهك بخمسين ألف سيف « (٥٧) » .

وأقبل مخلد بن يزيد من خراسان ، وحاول أن يتشفع لأبيه عند عمر بن عبد العزيز ولكن الخليفة كان مصرا على أخذ يزيد بالمال الذي ذكره في كتابه لسليمان ، وكأن الخليفة أراد الانتقام من صلف يزيد وغروره فأمن في تعذيبه والتشهير به ، فيروى أنه ألبسه جبة من صوف وحمله على جمل وشهر به بين الناس ، فلما صاح يزيد مناديا على أهل قبيلته من الأزد ، مستنجدا مما يحل به من تحقير ، سارع من همس في أذن الخليفة برد يزيد الى محبسه خوفا من أن ينتزعه قومه غضبا له فردده عمر الى الحيس ، فلم يزول يزيد في حبسه حتى بلغه خبر مرض عمر بن عبد العزيز (٥٨) .

كانت العلاقة بين يزيد بن المهلب وولى العهد يزيد بن عبد الملك سيئة للغاية ، وقد أشرنا الى الطريقة التي تعامل بها ابن المهلب معه من قبل ، فلما بلغ يزيد بن المهلب أن عمر بن عبد العزيز على فراش

(٥٦) عيون الاخبار ، ص ٢٩١ .

(٥٧) ابن أعثم ، م ٤ ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٥٨) طبرى ، ج ٦ ، ص ٥٥٧ - ٢٥٨ .

الموت فكر في الهرب من محبسه خوفا من بطش الخليفة الجديد ،
ويروى أن سوء العلاقة يرجع في المقام الأول ، الى أن يزيد بن المهلب
عذب أصحابه آل أبي عقيل عشيرة الحجاج في خلافة سليمان بن
عبد الملك^(٥٩) فشفع يزيد بن عبد الملك في أخت لزوجته (وهي ابنة أخى
الحجاج) لدى يزيد بن المهلب ، فلم يقبل شفاعته ، فهدده ابن عبد الملك
أن أصبحت الخلافة له ليقطعن من جسده ، فرد عليه ابن المهلب : لئن
كان ذلك لأرمينك بمائة ألف سيف^(٦٠) .

راسل يزيد بن المهلب أهل بيته ومواليه من محبسه معلنا عن
رغبته في الفرار ، فأعدوا له ذلك مثلما حدث من قبل عندما فر من سجن
الحجاج ، وأغدق يزيد الأموال على عامل حلب وعلى الحراس المكلفين
به ، وأعلمهم أن عمر بن عبد العزيز قد ثقل في مرضه وليس يرجى منه ،
وان ولى يزيد وهو في حبسه سفك دمه ، فساعدوه على الفرار ، وانتهى
به المطاف الى البصرة ، فلما بلغ مأمنه كتب الى عمر بن عبد العزيز :
انى والله لو علمت أنك تبقى ما خرجت من محبسى ، ولكنى لم آمن
يزيد بن عبد الملك^(٦١) فقال عمر : اللهم ان كان يزيد يريد بهذه الأمة
شرا فأكفهم شره ، وأردد كيده في نحره^(٦٢) .

(٥٩) أبو زكريا الأزدى ، تاريخ الموصل ، ص ٣ (القاهرة ١٩٦٧) .

(٦٠) الكامل ، ج ٢ ، ص ٥٧ .

(٦١) تاريخ الموصل ، ص ٣ .

(٦٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٦٤ ، النويرى ، ج ٢١ ، ص ٣٦٤ — ٣٦٥ .

الفصل السادس

ثورة آل المهلب على الدولة الأموية

وموقعة العقبر (١٠٢هـ)

كان من أهم مشاغل يزيد بن عبد الملك بعد أن تولى الخلافة سنة ١٠١هـ هو طلب يزيد بن المهلب والقبض عليه . فكتب الى والى البصرة في ذلك الوقت عدى بن أرطاة الفزاري ، يأمره بأخذ الحيلة من يزيد وتحذيره لأن أول ما يفكر فيه يزيد هو أن يلجأ الى البصرة حيث الأعوان والأنصار ، كما أمر الخليفة والى البصرة أن يأخذ من بها من آل المهلب وشيعتهم فيحبسهم ، فوقع في قبضته : المفضل وحبيب ومروان بنو المهلب^(١) .

أقبل يزيد بن المهلب من الشام وهو لا يعلم أن أخباز هزبه قد سبقته الى البصرة ويجهل ما حدث من والى البصرة ضد اخوته وأنصاره ، فالتقى به أخوه محمد بن المهلب فيمن اجتمع اليه من أهله وقومه ومواليه قبل دخوله البصرة ، وكان واليها قد حشد الأجناد وخذق حولها تحسبا لمجيء يزيد ومن معه ، ورغم ذلك فان البصرة كانت بالنسبة لآل المهلب

(١) طبرى ، ج ٦ ، ص ٥٧١ .

سكننا ودارا فكانت تعرف ببصرة المهلب ، فلما أقبل يزيد اخترق جيوش
عدى ودفاعاته دون مقاومة أو اعتراض ، فيروى ابن الأثير « فأقبل
يزيد لا يمر بخيل من خيلهم ولا قبيلة من قبائلهم الا تنحوا له عن
طريقة . فأقبل يزيد حتى نزل داره ، فاختلف اليه الناس » (٢) .

ولما اجتمع معظم أهل البصرة حول يزيد بن المهلب ، كاتب عدى بن
أرطاة في المصلح ، على أن يطلق اخوته وعشيرته من الحبس ، وتعهد
يزيد أن يتركه في البصرة حتى يحسم الصراع بينه وبين يزيد بن
عبد الملك ، ولكن عدى رفض الاستجابة للمصلح (٣) وكان ذلك في أواخر
سنة ١٠١ هـ .

استعد يزيد للدخول في مواجهة ضد والى البصرة ومواجهة الخلافة
الأموية في دمشق فحشد الرجال والأنصار لهذا الغرض ، وكان جوادا
سخيا فأقبل عليه الناس ، وكان يغدق عليهم بقطع الذهب والفضة في
الوقت الذى شح عليهم والى البصرة لعدم مقدرته على التصرف في
الأموال التى تحت يده الا باذن من الخليفة (٤) . وانتهى الأمر باستيلاء
يزيد على البصرة وأطلق سراح من بالحبس من أخوته وأنصاره وأتى
بعدى بن أرطاة فحبسه مكانهم (٥) واستولى على بيت مال البصرة مما
جعل في يده أخطر سلاح يمكن أن يستخدمه ضد أعدائه ، فأغدق الأموال
على رجاله وبعث العمال الى الأهواز وفارس وكرمان (٦) ، وجمع رجاله

(٢) الكامل ، ج ٥ ، ص ٧١ .

(٣) نويرى ، ج ٢١ ، ص ٣٨٤ .

(٤) طبرى ، ج ٦ ، ص ٥٨١ .

(٥) تاريخ الموصلى ، ص ٨ .

(٦) المسعودى ، التنبيه والاشراف ، ص ٢٩٣ .

وشيعته وخطب فيهم وحدد أهدافه من الخروج على يزيد بأنه لا يدعى لنفسه الخلافة ، ولكنه يدعوهم الى كتاب الله وسنة رسوله (٧) .

كان من سوء طالع يزيد بن المهلب وجود الحسن البصري في ذلك الوقت بما له من آراء في اعتزال الفتن ، وحث أتباعه على عدم الدخول طرفا في المنازعات ، فيروى أن الحسن لما سمع خطاب يزيد في رجاله قال : « ان هذا الذي يدعو الى كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ ، هو الذي كان يقتل الناس بالأمس في هوى بنى أمية » (٨) وسوف تكون هذه الدعوة من عوامل هزيمة يزيد فيما بعد .

استخلف يزيد بن المهلب أخاه مروان على البصرة (٩) وتحرك بحشوده في اتجاه واسط « وحشدت له الأزد وأحلافها ، وانحدر اليه أهله وخاصته » (١٠) ، وانضمت اليه أعداد كبيرة من أهل الكوفة ومن الثغور ، وأحصى ديوان ابن المهلب مائة وعشرين ألف مقاتل ، ورغم ذلك فقد كان يتمنى أن يكون في صفوفه من بخراسان من قومه الأزد (١١) ، وكان يزيد قد بعث أخاه مدرك بن المهلب الى خراسان وعليها عبد الرحمن ابن نعيم ليحشد له الحشود ، ولكن ابن نعيم لم يستجب له ، وحرض بنى تميم على التعرض لمدرك ومنعه من الوصول الى خراسان خوفا على

(٧) راجع : ابن أعمم ، م ٤ ، ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٨) الكامل ، ج ٥ ، ص ٧٦ .

(٩) تاريخ الموصل ، ص ٩ .

(١٠) المسعودي ، مروج ، ج ٣ ، ص ١٩٩ ، اليؤيض المعطار ،

ص ٤١٨ .

(١١) الكامل ، ج ٥ ، ص ٧٩ .

نفسه من غضب الخلافة الأموية في دمشق (١٣) ، ولكن الأزد سارعت
بإخراج ألفين من فرسانها لاستقبال مدرك ، ومنعوا بنى تميم من
التعرض له بسوء ، ويروى ابن الأثير ، أن الأزد كانت لها وجهة نظر
واضحة في هذا الصراع الدائر ضد الخلافة الأموية ، عبر عنه أحدهم
لمدرك بن المهلب الذي قال له : « انك أحب الناس إلينا وقد خرج أخوك ،
فإن يظهر فأنما ذلك لنا ونحن أسرع الناس إليكم وإن تكن الأخرى
فوالله مالك في أن يغشانا ما يعرنا فيه من البلاء ، فأنصرف عنهم » (١٣) .

حشد الخليفة يزيد بن عبد الملك في مواجهة يزيد بن المهلب جيشا
كثيفا تقدره المصادر ما بين سبعين الى ثمانين ألف رجل ، ووضع على
قيادته أحد أبطال الفتوحات الأموية أخاه مسلمة بن عبد الملك ومعه
ابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك (١٤) وتحرك هذا الجيش الى
العراق وقدم الكوفة في أوائل سنة ١٠٢ هـ ، ويبدو أن الجو كان باردا
والطقس غير مناسب للقتال حتى ان مسلمة قال : « ليت هذا المزونى ،
يعنى ابن المهلب ، لا كلفنا اتباعه في هذا البرد » (١٥) .

ويبدو أن خبر وصول جيش الخلافة الى الكوفة قد أثار الذعر
والاضطراب بين صفوف رجال يزيد بن المهلب الذي ساءه ذلك ، وشعر
بأن الخوف بداية الهزيمة ، فاجتمع برجاله ووقف فيهم خطيبا فقال :
« ما هذا الاضطراب أن قيل جاء مسلمة والعباس ، فوالله ما مسلمة

(١٢) تاريخ الموصل ، ص ٨ .

(١٣) الطبرى ، ج ٦ ، ص ٥٨٦ .

(١٤) المسعودى ، التنبيه ، ص ٢٩٤ .

(١٥) المزون : عمان وهو اسم من أسمائها (المبرد ، ص ٢٤٠) ،

الكامل ، ج ٥ ، ص ٧٤ .

الاجراة صفراء * وما أهل الشام الا طعام قد حشدوا ما بين فلاح
وزراع ودباغ وسفلة ، فأعبروني أكفكم ساعة تصفعون بها خراطيمهم ،
فما هي الا روحة أو غدوة حتى يحكم الله بيننا وبين القوم
الظالمين » (١٦) .

ترك يزيد بن المهلب واسط واستخلف عليها ابنه معاوية ، وسار
حتى نزل في مكان بالقرب من الكوفة يسمى العقر^(١٧) ، وكان قد بعث
أخاه عبد الملك في محاولة لضرب الكوفة والاستيلاء عليها ، فاصطدم
عبد الملك بجيش يقوده العباس بن الوليد وانتهى الأمر بينهما بهزيمة
عبد الملك الذي انسحب بمن معه والتقى بأخيه عند العقر^(١٨) . وأقبل
مسلمة بن عبد الملك ونزل بمواجهة ابن المهلب في صفر سنة ١٠٢هـ ولم
يبدأ القتال بين الجانبين الا بعد ثمانية أيام^(١٩) حدثت خلالها تطورات
خطيرة في صفوف يزيد بن المهلب .

أرسل مسلمة بن عبد الملك الرسل الى يزيد بن المهلب يسأله أن
يحقن الدماء ويرجع عما هو عليه ، وتعهده له في مقابل ذلك أن يولى
ويولى اخوته ما يرغبون من البلاد ، وأعلن استجابته لدعوة يزيد الى
الكتاب والسنة^(٢٠) التي أعلنها لأصحابه . ويبدو أن مسلمة كان يعلم

(١٦) الحميري ، الروض ، ص ٤١٩ ، المسعودي ، مروج ، ج ٣ ،

ص ٢٠٠ .

(١٧) العقر بأرض بابل من ناحية الكوفة بالعراق ، بين واسط وبغداد

(الروض ، ص ٤١٨) .

(١٨) المسعودي ، القتيبة ، ص ٩٤ ، تاريخ الموصل ، ص ١٤ .

(١٩) النويري ، ج ٢١ ، ص ٣٨٧ .

(٢٠) ابن أعثم ، م ٤ ، ص ٢٥١ .

حقيقة الأوضاع في جيش يزيد واختلاف الآراء والنحل بين رجاله ،
فقد أوجدت دعوته الى قبول الكتاب والسنة انقساماً خطيراً في صفوف
يزيد يذكرنا بهذا الانقسام الذي حدث من قبل في موقعة صفين •

وكيفما كان الأمر فان يزيد بن المهلب عندما بدأ اعداد جيشه
للمواجهة وأعد خطة الهجوم على جيش الخلافة الأموية ، وجد معارضة
من بعض رجاله وعلى رأسهم السميذع الكندي من بني مالك بن
ربيعه (٢١). وأيده في ذلك أبو رؤية صاحب المرجئة وأتباعه • وكان رأيهم
أن ينتظروا ولا يبدؤا بقتال حتى يرد القوم برأيهم الذي زعموا أنهم
قبلوه منهم (٢٢) • ولكن مسلمة بن عبد الملك كان قد هيا جيشه للقتال ،
فأضطر يزيد الى الخروج لمواجهة رغم المعارضة التي حرمته من تنفيذ
خطه في المبادرة ، فاجل على ميمنته حبيب بن المهلب ، وعلى
ميسرته المفضل بن المهلب (٢٣) ودارت عند العقر معركة عنيفة بين
الجانبين أجمعت المصادر على أن أصحاب يزيد قد خذلوه خلالها
فانهزموا عنه وولى أكثرهم الأدبار (٢٤) فيروي ابن الأثير أن مسلمة
أمر أحد رجاله بحرق الجسر الذي عقده على نهر الفرات ، فلما رأى
أصحاب ابن المهلب الدخان انهزموا ، فلما رأى يزيد ذلك تعجب من
سبب انهزامهم وقرارهم (٢٥) ولا شك أن الدخان ليس هو السبب في
فرار أصحاب يزيد ، وسوف نعرض لأسباب هزيمة العقر فيما بعد •

(٢١) الطبرى ، ج ٦ ، ص ٥٨٣ •

(٢٢) الكامل ، ج ٥ ، ص ٨٠ •

(٢٣) الروض ، ص ٤١٩ •

(٢٤) الطبرى ، ج ٦ ، ص ٥٩٥ ، النويرى ، ج ٢١ ، ص ٣٨٦ •

(٢٥) الكامل ، ج ٥ ، ص ٨٢ •

وهكذا انتهت المعركة بهزيمة يزيد ، ولما وصله خبر قتل أخيه حبيب شعر بهوان الحياة ، فاخترق صفوف جيش مسلمة في فدائية ومسالمة وكأفنه يينغ الموت بشرف في ساحة القتال التي طالما صال وجال فيها سنوات طويلة ، وقتل كل من كان يعترض طريقه حتى تكاثر عليه أهل الشام فقتلوه وقتل معه محمد بن المهلب^(٢٦) ، ويروى اليعقوبى أن يزيد بن المهلب خاض هذه المعركة وهو يعانى مرضا شديدا فكان « مبطونا شديدا العلة »^(٢٧) . ولما قتل يزيد بن المهلب ، كان أخوه الفضل مازال يقاتل جيش مسلمة ، فلما وصله خبر قتل أخوته : يزيد وحبيب ومحمد « تفرق الناس عنه »^(٢٨) ، فانسحب الفضل الى واسط وكان عليها معاوية بن يزيد بن المهلب وكان تحت يده عدد من الأسرى فلما بلغه هزيمة يزيد وقتله وما أصاب أعمامه ضرب أعناق الأسرى انتقاما لقتله^(٢٩) .

تجمع من بقى على قيد الحياة من آل المهلب بالبصرة بمازال في حوزتهم من أموال ومتاع وأعدوا السفن في طريقهم الى قنديل^(٣٠) وكان على أمارتها وداع بن حميد الأزدي الذى ادخره يزيد بن المهلب

(٢٦) تاريخ الموصل ، ص ١٢ — بعد قتل يزيد قال الفرزدق في رثائه:

ولا حملت أنثى ولا وضعت

بعد الأغر أصيب بالعقر

ذهب الجمال من المجالس كلها

وخلا لفقدك مجلس النصر

(٢٧) تاريخ اليعقوبى ، ج ٢ ، ص ٣١١ .

(٢٨) الكامل ، ج ٥ ، ص ٨٤ ، النويرى ، ج ٢١ ، ص ٣٨٨ .

(٢٩) تاريخ اليعقوبى ، ج ٢ ، ص ٣١١ ، تاريخ الموصل ، ص ١٢ .

(٣٠) قنديل مدينة بالسند وهى قسبة ولاية الندهة (راجع معجم

البلدان لياقوت !) .

لمثل هذا اليوم ، فكان قد أوصاه عندما ولاء قنذابيل بأن تكون حصن
أمان لآل المهلب اذا حل به مكروه (٣١) .

عوامل هزيمة يزيد بن المهلب في العقر (صفر سنة ١٠٢هـ)

تضافرت عدة عوامل في نكبة يزيد وآل المهلب في يوم العقر ،
وما تبع ذلك اليوم من مذبحة لاحق خلالها الأمويون آل المهلب في كل
مكان وكأنهم كانوا يرمون الى القضاء عليهم ومحو ذكركم من الوجود ،
وأهم هذه العوامل في رأينا :

١ — الانقسام داخل صفوف جيش يزيد وبين قواده ، وقد أثار
هذا الانقسام وعمقه ، ما قام به الحسن البصرى — وهو فقيه له مكانته
وأنصاره في البصرة — من تشكيك الناس في جدوى القتال وراء يزيد ،
وواجه الحسن يزيدا أثناء خطابه في أصحابه في مسجد البصرة ، وحرّض
الناس على عدم الوثوق في ادعاءات يزيد ، وعدم المشاركة في الفتنة ،
وكان يصيح فيهم : « أيها الناس ، الزموا منازلكم وكفوا أيديكم ،
وانتقوا الله ربكم ، لا يقتل بعضكم بعضا على دنيا زائلة » (٣٢) .

ولاشك أن هذه الدعوة كانت لها تأثير خطير على جيش يزيد بن
المهلب ، مما جعل البعض يميل الى رأى الحسن البصرى ، وعندما حاول
والى البصرة مروان بن المهلب أن يحشد الناس ليزيد بعد تحركه في
اتجاه العقر ، كان الحسن البصرى له بالمرصاد ولم يستطع مروان أن

(٣١) الكامل ، ج ٥ ، ص ٨٥ .

(٣٢) ابن أعثم ، م ٤ ، ص ٢٤٩ — قارن : الطبرى ، ج ٦ ، ص ٥٨٧ —

ص ٥٨٨ .

يتصدى له لأن أنصاره كانوا على استعداد للوقوف في وجه مروان إذا تعرض له بمكروه^(٣٣) . ومن وجهة أخرى فإن عناصر من المرجئة — وهم يمثلون إحدى الفرق الإسلامية التي ترفض الاشتراك في الفتن، ولا تؤيد فريقاً دون آخر — كانوا بين صفوف جيش يزيد بن المهلب ولعل ما دفعهم إلى انخراطهم في جيشه ما أغدقه يزيد على جنده من العطايا والهبات ، وفي الوقت الذي كان يحتاج فيه يزيد إلى حشد قواه لمواجهة أعدائه ، خرج أحد رجاله وهو السמידع واعترضه قائلاً : « انا قد دعوناهم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وقد زعموا أنهم قبلوا هذا منا ، فليس لنا أن نمكر ولا نغدر ، ولا نريدهم بسوء حتى يردوا علينا ما زعموا أنهم قابلوه منا . قال أبو ربيعة — وكان رأس طائفة من المرجئة ومعه أصحاب له — هكذا ينبغي »^(٣٤) .

٢ — الثقة الزائدة في النفس التي تلغى الحذر ، وتصل إلى الغرور من جانب يزيد بن المهلب ، فقد كان أبوه من قبل يتحرز من أعدائه ولا يستهين بهم في كل الأحوال ، وقد تربى يزيد في هذا الجو وخاض في حياة أبيه العديد من المعارك ومر بالكثير من التجارب ، وكان المفروض أن يعي الدرس ، ولكننا نلاحظ في هذه المعركة أن يزيد كان ينظر إلى أعدائه بدون اكتراث ، وكأن الانتصار عليهم مسألة وقت ، مع العلم بأن الخليفة الأموي قد وجه لقتاله قائدين من أقرب الناس إليه ، أحدهما وهو مسلمة كان أحد أبطال الغزو والجهاد في الجبهة

(٣٣) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٩٤ .

(٣٤) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٩٣ ، الكامل ، ج ٥ ، ص ٨٠ .

البيزنطية ، وبالرغم من ذلك فقد سخر يزيد من هذه القيادة ، ولام رجاله لتخوفهم من أهل الشام ، وقد يغفر له ما قاله تشجيعا لجنوده ، ولكنه قتل من شأن أعدائه ولم يحسن تقدير قوتهم ، فمن بين ما قاله لأصحابه : انه قد ذكر لى أن هذه الجرادة الصفراء — يعنى مسلمة بن عبد الملك ، وعافر ناقة ثمود — يعنى العباس بن الوليد — أنه ليس ههما الا القماسى فى الأرض ، والله لو جاء أهل الأرض جميعا وليس الا أنا ، ما برحت العرصه حتى تكون لى أو لهم « (٣٥) وتساءل فى تعجب : « قد رأيت أهل العسكر وخوفهم يقولون جاء أهل الشام ومسلمة ، وما أهل الشام؟ هل هم الا تسعة أسياف سبعة منها الى وسيفان على » (٣٦) .

ونتيجة لهذا الاعتداد الشديد بالذات لم يستجب لمشورة قواده وأهل بيته ، وكان قد استشارهم عندما توجه الى واسط عن رأيهم فى الخطوة التالية فاقترح عليه حبيب بن المهلب وبعض قواده أن يخرج بأصحابه الى فارس فيتحصن بشعابها وجبالها ويستولى على القلاع والحصون فينضم اليه من بها من قومه ومواليه ، فرفض يزيد هذه الفكرة (٣٧) فذكره حبيب بأنه قد سبق ونصحه عندما استولى على البصرة أن يسارع فيرسل خيلا للاستيلاء على الكوفة ، وكان واليها قد عجز عن التصدي ليزيد عندما مر عليه حين قدومه من الشام ، وليس معه الا سبعون رجلا ، فيسبق اليها أهل الشام ، وكان أهل الكوفة على استعداد لتأييد يزيد ويفضلون أن يلي أمرهم على أن

(٣٥) الطبرى ، ج ٦ ، ص ٥٩٢ .

(٣٦) الكامل ، ج ٥ ، ص ٧٥ .

(٣٧) تاريخ الموصل ، ص ١١ .

يخضعوا لأهل الشام ، فلم يستمع يزيد لنصيحة حبيب (٣٨) .
كما أنه حين أوشكت الهزيمة أن تحل بيزيد في العقر ، نصحه
بعض رجاله أن ينصرف الى واسط ويتحصن بها وقال : « فيأتيك مدد
أهل البصرة ، ويأتيك أهل عمان والبحرين في السفن ، وتضرب خندقاً » .
فقال له : قبح الله رأيك . الموت أيسر على من ذلك (٣٩) .

وأخيراً . . تفرق الناس عن يزيد بن المهلب في الوقت الذي كان
في أمس الحاجة الى تماسكهم واتحادهم ، والواقع أنهم لم يفرقهم
الدخان الذي انطلق من الجسر المحروق ، ولكن معظم الذين كانوا
يحاربون في صفوف يزيد في تلك المعركة كان يجمعهم المال ، وتفرقهم
الرهبة والخوف ، لاسيما وأنهم يواجهون جيش الخلافة الأموية ، وعلى
رأسه مسلمة بن عبد الملك ، وكان هذا يعنى بالنسيئة لهم خروجاً على
السلطة الشرعية بعكس حروبهم التي سبق أن خاضوها تحت قيادة
آل المهلب سواء ضد الأزارقة وهم أعداء الدولة وخارجون عليها ،
أو ضد الأقاليم التي أعادوا إخضاعها أو فتحوها ، فهي أعمال في صالح
الدولة الأموية وتحت رايتها . لذلك كان من السهل على البعض أن يجد
مبرراً للانسحاب والهرب عند الشعور بالخطر . وكان هذا موقف بعض
العناصر القريبة من آل المهلب ، وخير مثال على هذا موقف أزد
نخراسان (٤٠) الذي سبق أن أشرنا اليه .

وكيفما كان الأمر ، فإن الفضل بن المهلب تولى زعامة الأسرة في
هذا الوقت الخرج ، فينوى الطبري : أن معاوية بن يزيد بن المهلب
حين قدم البصرة من واسط ، حمل معه الخزائن وبيت المال ، فأراد

(٣٨) الكامل ، ج ٥ ، ص ٧٧ .

(٣٩) تاريخ الموصل ، ص ١١ .

(٤٠) الكامل ، ج ٥ ، ص ٧٥ .

أن يقامر على آل المهلب ، فاجتمعوا وقالوا للمفضل أنت أكبرنا وسيدنا
وولوه قيادتهم^(٤١) ، فركب المفضل بآل المهلب في السفن من البصرة ،
ورست السفن في البحرين للراحة والتزود بالمؤن فالتقى بهم واليها من
قبل يزيد بن المهلب ويدعى « هرم بن القرار العبدى » فنصحهم
بألا يتركوا سفنهم وقال : « انى أتخوف عليكم ان خرجتم من هذه
السفن أن يتخطفكم الناس وأن يتقربوا بكم الى بنى مروان »^(٤٢) .

ورغم ما فى قول هرم من بعض الحقيقة ، فما كان أحد من الأعوان
والأنصار يستطيع أن يحمى آل المهلب فى ذلك الوقت من بطش الدولة
الأموية بسطوتها وجيوشها ، ولكنه فى نفس الوقت كان يرغب فى إبعادهم
عن التفكير فى الاحتماء بالبحرين .

ويروى العوتبى أن السفن التى تحمل آل المهلب توجهت من
البحرين الى عمان وكان على ولايتها فى ذلك الوقت زياد بن المهلب
الذى رحب بأسرته فى وطنهم الأصلى وشجعهم على البقاء فى عمان
بين أهلهم ، ولكنهم أبوا ذلك^(٤٣) ، والواقع أنه ليس هناك ، فى رأينا ،
ما يبرر عدم لجوء آل المهلب فى هذه المرحلة الحرجة الى وطنهم عمان
حيث الأمان والاستقرار بالنسبة لهم ، الا احتمال أنهم كانوا يأملون
فى التحصن بقندايل ، وأن ينضم اليهم أهلهم ومواليهم فى فارس
مما قد يعطيهم الفرصة فى الحماية من بطش الدولة الأموية ومواصلة
الكفاح ضدها للثأر مما أصابهم .

وعلى أى حال فان آل المهلب مضوا فى سفنهم حتى اذا كانوا بحذاء

(٤١) الطبرى ، ج ٦ ، ص ٦٠١ .

(٤٢) نفسه ، ص ٦٠٠ .

(٤٣) الأنساب ، ج ٢ ، ص ١٥٦ .

جبال كرمان خرجوا الى الساحل وحملوا ما معهم على الدواب ، وفي
كرمان اجتمع الى الفضل فلول من أنصاره ، وكانت عيون مسلمة بن
عبد الملك تراقب تحركات آل المهلب للقضاء عليهم قبل أن يتمكنوا من
حشد حشودهم واصطناع الأعوان ، فبعث مسلمة في أثرهم « مدرك
ابن ضب الكلبى » الذى لحق بهم ، والتقى الجانبان فى معركة عنيفة
قتل فيها عدد كبير من أصحاب الفضل ، كما رجع بعضهم وطلبوا
الأمان من مسلمة فأمنهم^(٤٤) ، وتمكن الفضل من الخروج من المعركة
بمن معه من آل المهلب ومن بقى على ولائه لهم قاصدا قندابيل على
رجاء الاحتماء بها حسب الاتفاق الذى كان بين يزيد بن المهلب وبين
والهيا وداع بن حميد ، وفى قندابيل كان ينتظر آل المهلب مفاجأة أخرى ،
فبيدو أن وداع قد أعاد تقدير الموقف ، وأدرك أن دخول آل المهلب
قندابيل فيه نهايته ، لاسيما أن يزيد بن عبد الملك قد بعث جيشا آخر
بقيادة هلال بن أحوز التميمى فى طلب آل المهلب وأمره أن لا يلقي
منهم من بلغ الحلم الا ضرب عنقه^(٤٥) .

لحق هلال بن أحوز آل المهلب قبل دخولهم قندابيل ، ورفع راية
الأمان للناس فكان أول من استجاب للأمان وداع صاحب قندابيل ،
وتفرق الناس عن آل المهلب الذين تقدموا بسيوفهم فقاتلوا بفدائية
واستبسال حتى قتل معظمهم وهم : الفضل وعبد الملك وزيد ومروان
بنو المهلب ، ومعاوية بن يزيد بن المهلب ، والمنهال بن أبى عبيدة بن المهلب
وعمره والمغيرة ابنا قبيصة بن المهلب ، ولم يفلت منهم الا أبا عبيدة

(٤٤) راجع التفاصيل ، الطبرى ، ج ٦ ، ص ٦٠١ - ٦٠٢ .

(٤٥) المسعودى ، مروج ، ج ٣ ، ص ٢٠٠ .

ابن المهلب وعثمان بن المفضل اللذين فرأ الى بلاد الترك (٤٦) .

وبعث هلال بن أحوز برؤوس القتلى والنساء الأسرى من آل المهلب الى مسلمة بن عبد الملك وهو بالحيرة ، فلما أراد مسلمة بيع الأسرى عرض الجراح بن عبد الله الحكمي مائة ألف درهم ثمناً لهم ، فلم يأخذ منه مسلمة شيئاً وأطلق سراحهم (٤٧) ، أما الأسرى الرجال فأمر يزيد ابن عبد الملك بضرب أعناق من بلغ الحلم منهم ، والغريب في الأمر أن غلاماً من آل المهلب لم يقتل لصغر سنه ، ولكنه صاح بهم أن يقتلوه . وقال : « أنا أعلم بنفسى فقد احتلمت ووطئت النساء فأمر به فقتل » (٤٨) ، وقام يزيد بن عبد الملك بمصادرة أملاك آل المهلب في كل مكان وأقطعها لأنصاره (٤٩) .

(٤٦) البلاذرى ، ص ٥٤٠ ، النويرى ، ج ٢١ ، ص ٣٩٠ .

(٤٧) الكامل ، ج ٥ ، ص ٨٦ .

(٤٨) النويرى ، ج ٢١ ، ص ٣٩١ .

(٤٩) راجع : البلاذرى ، ص ٤٥١ — ٤٥٤ .

الخاتمة

ظل آل المهلب على عدائهم للدولة الأموية بعد النكبات التي حلت بهم ، ولكن لم يكن لهم دور مؤثر في الأحداث لسنوات طويلة بعد نكبتهم على يد يزيد بن عبد الملك ، وإن كانت المصادر التي بين أيدينا لم تعطنا المعلومات اللازمة عن آل المهلب في الفترة التالية لنكبتهم إلا أن ما ذكر بعد ذلك في أحداث سنة ١٢٩هـ يدل على أن آل المهلب قد بدأوا يستعيدون نفوذهم ويجمعون حولهم الأنصار وخاصة في مدينتهم البصرة وأقليم الأهواز الذي عاصر انتصاراتهم على الأزارقة . ففي أثناء الصراع بين أبي مسلم الخراساني والقائد الأموي نصر بن سيار على خراسان سنة ١٢٩هـ ظهر على مسرح الأحداث أحد أفراد آل المهلب وهو « سليمان بن حبيب بن المهلب » فيروى اليعقوبي :

« وثب سليمان بن حبيب بن المهلب بالأهواز سنة ١٢٩هـ ، فوجه إليه القائد الأموي يزيد بن عمر بن هبيرة ، نباتة بن حنظلة الكلابي ، فاقتلوا قتالا شديدا ، ثم انهزم سليمان فلحق بفارس »^(١) مما يوحي بأنه انضم إلى جيوش أبي مسلم الخراساني الذي كان يحارب الدولة الأموية في ذلك الوقت .

ويبدو أن أمراء آل المهلب ظلوا يساندون الدعوة العباسية حتى حققت أهدافها بالقضاء على الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ ، فعندما أعلن أبو سلمة الخلال صاحب الدعوة العباسية في الكوفة الدعوة للعباسيين ، قام سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بإعلان الثورة في البصرة ولبس

(١) تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٣٤١ .

السواد شعار الدولة العباسية وحارب وإلى الأمويين واستولى على
المدينة^(٢) وقد كافأ العباسيون سفيان بن معاوية بأن أسندوا إليه ولاية
البصرة ، وردوا إليه أملاك آل المهلب التي صادرتها الدولة الأموية^(٣) .

(٢) اليعقوبى ، ج ٢ ، ص ٣٤٥ ، الأنساب ، ج ٢ ، ص ١٥٦ — ١٥٧ .
(٣) الطبرى ، ج ٧ ، ص ٤٥٨ . البلاذرى ، ص ٤٥١ .

ثبت بأهم مصادر البحث

- ابن الأثير : على بن محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت ٦٣٠هـ) :
الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٨٢ •
- ابن أعثم الكوفي : أبو محمد أحمد (ت ٣١٤هـ) :
كتاب الفتوح ، بيروت ١٩٨٦ •
- البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ) :
١ — فتوح البلدان ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٦ •
٢ — أنساب الأشراف ، تحقيق محمد حميد الله ، القاهرة ١٩٥٩ •
- البغدادى : عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩هـ) :
مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، بيروت ١٩٥٥ •
- الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ) :
البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٨٥ •
- ابن حجر العسقلانى : شهاب الدين أحمد بن على (ت ٨٥٢هـ) :
الاصابة في تمييز الصحابة ، بيروت ١٣٣٨هـ •
- ابن حزم : أبو محمد على بن أحمد الأندلسى (ت ٤٥٦هـ) :
جمهرة أنساب العرب ، القاهرة ١٩٨٢ •
- الحميرى : عبد المنعم السبتي (ت أواخر القرن التاسع الهجرى) :
الروض المعطار في خبر الأقطار ، بيروت ١٩٨٣ •
- ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ) :
تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدا والخبر) ، بيروت ١٩٨٦ •

- ابن خلكان : شمس الدين أحمد بن محمد بن علي (ت ٦٨١هـ) :
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ،
بيروت ١٩٦٨ — ١٩٧٢ •
- الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ) :
١ — سير أعلام النبلاء ، بيروت بدون تاريخ •
٢ — كتاب المشتبه ، القاهرة ١٩٦٢ •
- أبو زكريا : يزيد بن محمد بن أياس (ت ٣٣٤هـ) :
كتاب تاريخ الموصل ، القاهرة ١٩٦٧ •
- ابن سعد : أبو عبد الله محمد الزهري (ت ٢٣٠هـ) :
الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت بدون تاريخ •
- سيف البطاش : سيف بن حمود بن حامد :
تاريخ المهلب القائد وآل المهلب ، عمان ١٩٨٨ •
- الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) :
تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ،
طبعة دار المعارف بالقاهرة •
- ابن عبد البر : النمرى القرطبي (ت ٤٦٣هـ) :
الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، بيروت ١٣٢٨ هـ •
- العوتبي الصحاري : سلمة بن مسلم (ت القرن الخامس الهجري) :
كتاب الأنساب ، تحقيق محمد الصليبي ، عمان ١٩٨٤ •
- أبو الفرج الأصفهاني : علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ) :
الأغانى ، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة •
- ابن قتيبة الدينوري : عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ) :
المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، القاهرة ١٩٦٩ •

- قدامة بن جعفر : (ت ٣٣٩هـ) :
الخراج وصناعة الكتابة ، العراق ١٩٨١ •
- ابن كثير : عماد الدين أبو الفدا اسماعيل (ت ٧٧٤هـ) :
البداية والنهاية ، القاهرة ١٩٣٣ •
- المبرد : محمد بن يزيد بن عبد الأكبر (ت ٢٨٥هـ) :
المكامل في اللغة والأدب ، بيروت بدون تاريخ •
- محمد بن أبي عثمان الحازمي :
كتاب النسب ، القاهرة ١٩٧٣ •
- المسعودي : علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ) :
١ — التنبيه والاشراف ، بيروت ١٩٨١ •
٢ — مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ١٩٨٦ •
- نور الدين السالمى : أبو عبد الله محمد بن حميد بن سلوم :
تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ، طبع القاهرة بدون تاريخ •
- النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢هـ) :
نهاية الأرب في فنون الأدب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب •
- أبو هلال العسكري (ت في بداية القرن الخامس الهجرى) :
كتاب الأوائل ، الرياض ١٩٨١ •
- الهمذاني : أبو بكر أحمد بن إبراهيم :
مختصر كتاب البلدان ، لندن ١٨٨٥ •
- ياقوت الحموى : شهاب الدين ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ) :
معجم البلدان ، بيروت ١٩٥٥ •
- اليعقوبى : أحمد بن جعفر بن وهب (ت ٢٨٤هـ) :
تاريخ اليعقوبى ، بيروت بدون تاريخ •



الفهرست

المقدمة	٩ - ١
الفصل الأول : أسرة المهالبة منذ اعتنق أبو صفرة الاسلام وحتى وفاة يزيد بن معاوية (٥٦٤هـ)	٢٢ - ١١
الفصل الثاني : آل المهلب وثورة عبد الله بن الزبير	٤٠ - ٣٣
الفصل الثالث : ولاء آل المهلب للدولة الأموية حتى القضاء على الأزارقة (٥٧٧هـ)	٦٤ - ٤١
الفصل الرابع : ولاية المهلب على خراسان حتى وفاته (٥٨٢هـ)	٧٢ - ٦٥
الفصل الخامس : آل المهلب تحت قيادة يزيد بن المهلب حتى وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز (١٠١هـ)	٩٠ - ٧٣
الفصل السادس : ثورة آل المهلب على الدولة الأموية وموقعة العققر (١٠٢هـ)	١٠٤ - ٩١
الخاتمة	١٠٦ - ١٠٥
ثبت بأهم المصادر	١٠٩ - ١٠٧

رقم الأيداع بدار الكتب

١٩٩١ / ٧٨٣٣

General Organization for the Arabic

I. S. B. N. 977 - 00 - 2154 - 7

Bibliothèque de la Fondation

دار نشر الثقافة بالاسكندرية



